# الانتقاء من كتاب الداء والدواء

(أكثر من ٧٠ درسًا لأئمة المساجد وأرباب البيوت الأماجد)

**انتقاء**

**عبد الله بن سعيد أبو حاوي القحطاني**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإنه لا يخفى على كل خادم للدين ما لكتب ابن القيم من الأهمية والمساهمة في إصلاح الأمّة، وقد كان من تلك الكتب العظيمة المفيدة "كتاب الداء والدواء" والذي قد عالج فيه رحمه الله كثيراً من الأدواء، هي في أزماننا أكثر، وفي أوقاتنا أشر وأبْطر،ولعمر الله لكأنه يتكلم عما هو حاصل في هذه الأوقات من استطار الشرور والآفات.

وقد كان من فضل الله عليّ أن منَّ بترتيبه وتهذيبه على هيئة دروس قصيرة مرتبة تقرأ على جميع المسلمين، وذلك لأهمية ما ذكره من قضايا هي في أزماننا من الأمراض الفتاكة، وفي عصرنا من الأفكار المنتشرة الهدامة.

– وقد أعرضت عن بعض المناقشات الطويلة والألفاظ الغامضة ؛ تسهيلا على عوام المسلمين، ولعل الله أن يعم بنفعه كل القراء والمستمعين.

وقد كانت النهاية من ترتيبه ليلة وفاة "جدتي أم أبي" -رحمها الله- وغفر لها وجمعني بها في جنته، وجعلته وقفا عليها لعل الله أن ينفعها به ويجري حسناتها بعد موتها،إنه على كل شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير.

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

**ترتيب وتهذيب:**

**عبد الله بن سعيد أبو حاوي القحطاني**

**٢٠/١٠/١٤٤٤هـ**

# الدرس الأول

# (لكل داء دواء)

الحمد لله. ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»**.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **«لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»**.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: **«إن الله لم يُنْزِلْ داءً إلا أنزل له شفاءً، علِمَه مَن علِمَه، وجَهِله مَن جَهِله»**.

وفي لفظ: **«إن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً أو دواءً إلا داءً واحدًا»** قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: **«الهرَم»**. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا يعمّ أدواءَ القلب والروح والبدن، وأدويتَها. وقد جعل النبي –صلى الله عليه وسلم– الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء. فأخبر أنّ الجهل داء، وأنّ شفاءه السؤال.

وقد أخبر –سبحانه– عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ} [فصلت: ٤٤].

وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]، و"من" ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله –سبحانه– من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.[1]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[1] كتاب الداء والدواء (ص ٤، ٥، ٦، ٨)

# الدرس الثاني

# (أسباب تخلف أثر الدعاء)

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورَين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها.

كما في صحيح الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يقبل دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاه**». فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوله.

وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أيها الناس، إنّ الله طيّب، لا يقبل إلا طيّبًا**». وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر

أشعثَ أغبرَ يمدّ يده إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك!.

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: أصاب بني إسرائيل بلاءً، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلى نبيّهم أن أخبرهم: تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم، ولن تزدادوا مني إلا بعدًا.

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البِرّ ما يكفي الطعام من الملح.[٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢] الداء والدواء (ص ٩)

# الدرس الثالث

## (الدعاء والإلحاح فيه من أنفع الأدوية)

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل. وهو سلاح المؤمن، كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض**».

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

**أحدها**: أن يكون أقوى من البلاء، فيدفعه.

**الثاني**: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد. ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

**الثالث**: أن يتقاوما، ويمنع كلّ واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: «**لا يغني حَذَر من قَدَر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل، فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة**».

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: «**الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء**».

وفيه أيضًا من حديث ثوبان: «**لا يردّ القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد لعمر إلا البِرّ، دانّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**».

ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء، وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**من لم يسأل اللهَ يغضَبْ عليه**».

وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد**».

وذكر الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن الله يحب المِلحّين في الدعاء**».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مُوَرِّق: ما وجدت للمؤمن مثلًا إلا رجلًا في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب، لعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن ينجيه.[٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣] الداء والدواء (من ص ١١ إلى ١٥).

# الدرس الرابع

## (الآفات المانعة من أثر الدعاء)

ومن الآفات التي تمنع ترتُّبَ أثرِ الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسرَ، ويدَعَ الدعاء. وهو بمنزلة مَن بذر بَذرًا، أو غرس غِراسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمّا استبطأ كمالَه وإدراكَه، تركه وأهمله!.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجَلْ، يقول: دعوتُ، فلم يُستجَبْ لي**».

وفي صحيح مسلم عنه: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةِ رحيم، ما لم يستعجلْ**». قيل: يا رسولَ الله، وما الاستعجال ؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ وقَد دعوتُ، فلم أرَ يستجيب لي، فيَستحسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء**».

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**» قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ ربّي، فلم يَستجِبْ لي**».[٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤] الداء والدواء ( ص ١٥، ١٦).

# الدرس الخامس

# (شروط قبول الدعاء)

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيتَه بكلّيته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: (**الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم**)، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربّ، وذلاً له، وتضرّعًا ورِقّةً؛ واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله –تعالى–، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمَّد عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحّ عليه في المسألة، وتملّقه، ودعاه رغبة ورهبة، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة، فإنّ هذا الدعاء لا يكاد يُرَدّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم: فمنها ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سمع رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا

أحد. فقال: «**لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب**». وفي لفظ: «**لقد سألتَ الله باسمه الأعظم**».

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جالسًا، ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم، فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**». وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا، وهو في بطن الحوت**: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] **إنّه لم يدعُ بها مسلمٌ في شيء قطّ إلا استجاب الله له**». قال الترمذي:حديث صحيح.

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدّ فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو. ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلّف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر.[٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥] الداء والدواء (ص ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٦).

# الدرس السادس

## (من ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة)

فمَن أُلهِمَ الدعاءَ فقد أريد به الإجابة، فإنّ الله –سبحانه– يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] وقال: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **«من لم يسأل الله يغضَبْ عليه»**.

وهذا يدل على أنّ رضاه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الربّ –تبارك وتعالى– فكلّ خير في رضاه، كما أنّ كل بلاءً ومصيبة في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثرًا: **«أنا الله، لا إله إلا أنا، إذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي منتهى. وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد»**.

وقد دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم –على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها– على أنّ التقرب إلى ربّ العالمين وطلب مرضاته، والبرّ والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شرّ، فما استُجلِبتْ نِعمُ الله واستُدفِعتْ نِقَمُه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتّب الله -سبحانه- حصولَ الخيرات في الدنيا والآخرة وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبّب على السبب. وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع.[٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦] الداء والدواء (ص ٣٠، ٣١).

# الدرس السابع

## (أمران تتم بهما سعادة المرء وفلاحه)

- **أحدهما**: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبُّر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الشرّ والخير جميعًا مفصّلةً مبيّنةً، ثم السنّة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يُرِيانِك الخير والشرّ وأسبابهما، حتّى كأنّك تعاين ذلك عيانًا.

وبعد ذلك إذا تأملتَ أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمتَه من القرآن والسنة، ورأيت تفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمتَ من آياته في الآفاق ما يدلّك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة. فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

- **والأمر الثاني**: أن يحذر مغالطةَ نفسِه له على هذه الأسباب، وهذا من أهم الأمور، فإنّ العبد يعرف أنّ المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولا بدَّ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة تارة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل

المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء والاقتداء بالأكابر تارة.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل، ثم قال: "أستغفر الله" زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا!.[٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧] الداء والدواء (ص ٣٥، ٣٦).

# الدرس الثامن

## (حسن الظن إنما يكون مع الإحسان وطاعة الله)

ولا ريب أنّ حسن الظن إنّما يكون مع "الإحسان" فإنّ المحسن حسن الظن بربه أنّه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات، فإنّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإنّ العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به.

ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنّ أبدًا، فإنّ المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظنًّا بربّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إنّ المؤمن أحسن الظنَّ بربّه، فأحسن العمل، وإنّ الفاجر أساء الظنَّ بربّه، فأساء العمل.

وكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!.

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفَتْه به رُسُله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟.

فياالله! ما ظنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمةِ بالله إذا لقُوه، ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولُهم: "حَسَّنَّا ظنونَنا بك"، لم يعذَّبْ ظالم ولا فاسق، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كلّ ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنّه بالله، فإنّ النار لا تمسّه! فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد!.

وقد قال إبراهيم لقومه: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ٨٦ – ٨٧] أي: فما ظنّكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟.

ومن تأمل هذا الموضع حقّ التأمل علِمَ أنّ حسنَ الظن بالله هو حسنُ العمل نفسه. فإنّ العبد إنما يحمله على حسن العمل حسنُ ظنّه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبّلها منه. فالذي حمله على العمل حسنُ الظن، وكلّما حسُن ظنُّه حسُن عملُه، وإلا فحسنُ الظن مع اتباع الهوى عجز.[٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٨] الداء والدواء (من ص ٤٤ إلى ٤٨).

# الدرس التاسع

# (اعتماد الجهّال على رحمة الله وعفوه مع ترك الأوامر وارتكاب النواهي)

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار فهو كالمعاند.

وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخِذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمَنْ أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمْنَا خير لك من أن تصحب قومًا يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف.

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «**إياكم ومحقَّراتِ الذنوب، فإنهنّ يجتمعن علي الرجل حتى يهلكنه وضرب لهن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مثلًا كمثل قوم نزلوا أرضَ فَلاة، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعُود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأجّجوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها**».

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذَرْه ولا تغترَّ، فإنّه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحدّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النارَ في هرّة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلّها وقد قتِل شهيدًا.[٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٩] الداء والدواء ( ص ٥١، ٥٢، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٧٦).

# الدرس العاشر

## (الاغترار بنعم الله على العبد في الدنيا)

وربما اتّكل بعض المغترّين على ما يرى من نعَم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغيَّر به، ويظنّ أنّ ذلك من محبة الله له، وأنّه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحي بن غيلان، حدثنا رِشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عُقْبة بن مسلم، عن عُقْبة بن عامر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إذا رأيتَ الله عَزَّ وَجَلَّ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحِبّ، فإنما هو استدراج**». ثم تلا قوله -عز وجل-: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع نعمَه عليك، وأنت مقيم على معاصيه، فاحذره؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به.

وقد قال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)} [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقد ردّ –سبحانه– على من يظن هذا الظن بقوله: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا} [الفجر: ١٥ – ١٧]

أي: ليس كلُّ من نعّمتُه ووسّعتُ عليه رزقَه أكون قد أكرمتُه، ولا كلُّ من ابتليتُه وضيّقت عليه رزقه أكون قد أهنتُه. بل أبتلي هذا بالنعمة، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه –صلى الله عليه وسلم –: «**إنّ الله يعطي الدنيا مَن يُحِبّ ومن لا يُحِبّ، ولا يعطي الإيمان إلا من يُحِب**».

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم ورُبَّ مغرور بسَتْر الله عليه، وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه، وهو لا يعلم.

وأعظم الخلق غرورًا من اغترّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتّى يقولُ بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة!.[١٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[١٠] الداء والدواء (من ص ٧٧ إلى ٧٩)

# الدرس الحادي عشر

# (لوازم الرجاء)

ومما ينبغي أن يعلم أنّ من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا:

**أحدها:** محبة ما يرجوه.

**الثاني:** خوفه من فواته.

**الثالث:** سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاءٌ لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني! والرجاء شيء، والأماني شيء آخر. فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرَعَ السيرَ مخافةَ الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: **«مَن خاف أدلجَ، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنّة»**.

وهو –سبحانه- كما جعل الرَّجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال، فعُلِمَ أنّ الرَّجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله –تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)} [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سألتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، ويخافون أن لا يُتقبَل منهم أولئك يسارعون في الخيرات**».

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله -سبحانه- وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة -رضي الله عنهم- وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف. ونحن جمعنا بين التقصير -بل التفريط- والأمن!.[١١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١١] الداء والدواء (من ص ٨٧ إلى ٩١)

# الدرس الثاني عشر

## (خوف الصحابة –رضي الله عنهم– على أنفسهم من النفاق)

فهذا الصدّيق يقول: "وددتُ أنّي شعرة في جنب عبد مؤمن". ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد!

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكَوا.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله –عَزَّ وَجَلَّ–.

وأتي بطائر، فقلّبه، ثم قال: ما صِيدَ مِن صَيدٍ ولا قُطعت من شجرة إلا بما ضيّعَتْ من التسبيح.

ولما احتضر قال لعائشة: يا بنية، إنّي أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذا الحِلاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب.

وقال: والله لودِدتُ أنّي كنتُ هذه الشجرة، تؤكل وتُعضد! وقال قتادة: بلغني أنّ أبا بكر قال: ودِدتُ أنّي خَضِرةٌ تأكلني الدوابّ.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور حتّى بلغ: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} [الطور: ٧]، فبكى، واشتدّ بكاؤه، حتى مرض وعادُوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضَعْ خدّي على الأرض عساه أن يرحمني. ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر لي، ثلاثًا، ثم قضَى.

وكان يمرّ بالآية في وِرده بالليل، فتخنقه، فيبقى في البيت أيامًا يُعاد، يحسبونه مريضًا.

وكان في وجهه –رضي الله عنه– خطّان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددتُ أنّي أنجو، لا أجرَ ولا وِزرَ.

وهذا عثمان بن عفان –رضي الله عنه– كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيتَه.

وقال: لو أنني بين الجنّة والنار، لا أدري إلى أيّهما يؤمر بي، لاخترتُ أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلى أيّهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: فأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق. ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حسابَ، وغدًا حساب ولا عملَ.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إنّ أشدّ ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ فيما علمتَ؟

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظِلّون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد، تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم. ولَوددتُ أنّي شجرة تُعضَد ثم تؤكل.

وكان عبد الله بن عباس أسفلَ عينَيه مثلُ الشَراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذرّ يقول: ياليتني كنتُ شجرةً تعضَد، ووددتُ أنّي لم أُخْلَق.

وعُرضت عليه النفقة فقال: عندنا عَنْزٌ نحلبُها، وأحمِرَة ننقل عليها، ومحرَّرٌ يخدمنا، وفضل عباءة. وإنّي أخاف الحسابَ فيها.

وقرأ تميم الداري ليلةَ سورة الجاثية، فلمّا أتى على هذه الآية {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)} [الجاثية: ٢١] جعل يردّدها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أني كبش، فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحَسَوا مرَقي. وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه:"باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التَّيمي: ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذَّبًا. وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب

النبي-صلى الله عليه وسلم- كلُهم يخاف النفاقَ على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمِنَه إلا منافق".

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشُدك الله، هل سمّاني لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ يعني في المنافقين فيقول: لا، ولا أزكّي بعدك أحدًا.[١٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٢] الداء والدواء (من ص ٩١ إلى ٩٧)

# الدرس الثالث عشر

## (كل شر وداء في الدنيا والآخره فسببه الذنوب والمعاصي)

فممّا ينبغي أن يعلم أنّ الذنوب تضرّ ولابدّ، وأنّ ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شرّ وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنّة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرَدَه ولعَنَه، ومسَخَ ظاهره وباطنه، فجُعِلَتْ صورتُه أقبح صورة وأشنعها؛ وباطنُه أقبح من صورته وأشنع؟ وبُدّل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظّى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظمَ عداوةٍ ومشاقّةٍ، وبزجَل التسبيح والتقديس والتهليل زَجَلَ الكفر والشرك والكذب والزور والفحشِ، وبلباس الإيمان لباسَ الكفر والفسوق والعصيان. فهان على الله غايةَ الهوان، وسقط من عينه غايةَ السقوط، وحلّ عليه غضبُ الرب تعالى فأهواه، ومقَتَه أكبر المقت فأرداه. فصار قوّادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة، بعد تلك العبادة والسيادة. فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي غرّق أهل الأرض كلّهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

وما الذي سلّط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمّرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابّهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة.

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحةَ حتى قطّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيحَ كلابهم، ثم قَلَبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا. ثم أتبعهم حجارةً من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمّةٍ غيرهم. ولإخوانهم أمثالُها، وما هي من الظالمين ببعيد!.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحابَ العذاب كالظُّلل، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظّى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحُهم إلى جهنّم. فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمّرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولى بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرّية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال. ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبّروا ما علوا تتبيرًا؟

وما الذي سلّط عليهم أنواعَ العقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرّةً بجور الملوك، ومرّةً بمسخهم قردة وخنازير؟ وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: {لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف: ١٦٧].[١٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٣] الداء والدواء ( من ص ٩٨ إلى ١٠١)

# الدرس الرابع عشر

## (الأحاديث والآثار في بيان أثر الذنوب)

وفي مسند أحمد من حديث أم سلمة قال: سمعتُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمّهم الله بعذابٍ من عنده**». فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: «**بلى**». قالت: فكيف يُصنَع بأولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**».

وفي مراسيل الحسن عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: «**لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنَفه، ما لم يُمالِئْ قرّاؤها أمراءَها، وما لم يُزَكِّ صلحاؤها فجّارَها، وما لم يُهِنْ خيارَها شِرارُها. فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلّط عليهم جبابرتهم، فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر**».

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «**إنّ الرجل لَيُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه**».

وفيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تَداعَى الأَكَلةُ على قَصْعتها**» قلنا: يا رسول الله أمِنْ قلّةٍ بنا يومئذ؟ قال: «**أنتم يومئذ كثير،**

**ولكنكم غثاء كغثاء السيل تُنزَع المهابةُ من قلوب عدوّكم، ويُجعل في قلوبكم الوَهْنُ»** قالوا: وما الوهن؟

قال: **«حبّ الحياة، وكراهة الموت»**.

وذكر من حديث سِماك بن حرب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذنَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهلاكها.

وفي مراسيل الحسن: "إذا أظهر الناس العلم، وضيّعوا العمل، وتحابّوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا بالأرحام لعنهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- عند ذلك، فأصمّهم، وأعمى أبصارهم ".

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: "كنتُ عاشرَ عشرةٍ وهي من المهاجرين عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأقبل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بوجهه، فقال: **«يا معشر المهاجرين، خمسُ خصال وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلاّ ابْتُلُوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا ابتلُوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زَكاةَ أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء، فلولا البهائم لم يُمطَروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلّط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمّتُهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسَهم بينهم»**.

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك، يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك، يصغر عند الله.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى إن أول من مات من خلقي إبليس، وذلك أنّه عصاني، وإنّما أعُدّ من عصاني من الأموات.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إنّ المؤمن إذا أذنب نكتَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب، ونزع، واستغفر، صُقِلَ قلبه، وإنْ زاد زادت حتى تعلو قلبَه، فذلك الرّانُ الذي ذكر الله -عز وجل-:** {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)} [المطففين: ١٤]». قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال حذيفة: إذا أذنب العبد نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء حتى يصيرَ قلبُه كالشاة الرَّبْداء.[١٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٤] الداء والدواء ( من ص ١٠٢ إلى ١٠٤، من ١٠٦ إلى ١٠٨، من ١٢٧إلى ١٢٨)

# الدرس الخامس عشر

## (آثار وأضرار الذنوب والمعاصي على العبد في دينه ودنياه وآخرته)

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرّة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

- **فمنها**: حرمان العلم، فإنّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الشافعيّ بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقّد ذكائه، وكمال فهمه؛ فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي:

شـــكوتُ إلى وكيعٍ ســـوءَ حفظي ... فـأرشـــدَني إلى ترك المعـاصـــي

وقـال اعـلَـمْ بأنَّ الـعـلـمَ فضـــلٌ ... وفضـــلُ الله لا يـؤتاه عـاصِ

- **ومنها**: حرمان الرزق. وفي المسند: «**إنّ العبد لَيُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه**». وقد تقدّم.

وكما أنّ تقوى الله مَجلَبة للرزق، فتركُ التقوى مجلبة للفقر. فما استُجْلِبَ رزقُ الله بمثل ترك المعاصي.

• **ومنها:** وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبيّن الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلًا. ولو اجتمعت له لذّاتُ الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحسّ به إلا من في قلبه حياة. و"ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ". فلو لم يترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًّا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشةً يجدها في نفسه فقال له:

إذا كنتَ قد أوحشتك الذنوبُ فدَعْها إذا شئتَ واستأنسِ

وليس على القلب أمَرُّ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.[١٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٥] الداء والدواء ( من ص ١٣٢ إلى ١٣٤)

# الدرس السادس عشر

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: الوحشة التي تحصل له بينه وبيّن الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنّه يجد وحشةً بينه وبينهم، وكلّما قويت تلك الوحشة بَعُدَ منهم ومن مجالستهم، وحُرِمَ بركة الانتفاع بهم، وقرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بعُد من حزب الرحمن. وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبيّن امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبيّن نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه!.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله، فأرى ذلك في خُلُق دابّتي وامرأتي.

• **ومنها**: تعسير أموره عليه. فلا يتوجّه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسّرًا عليه. وهذا كما أنّ من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطّل التقوى جعل له من أمره عسرًا.

وياالله العجب! كيف يجد العبد أبوابَ الخير والمصالح مسدودةً عنه، وطرُقَها معسَّرةً عليه، وهو لا يعلم من أين أُتِيَ؟

• **ومنها**: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسّ بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسّية لبصره. فإنّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلّما قويت الظلمة ازدادت حيرته،

حتّى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كلّ أحد.

قال عبد الله بن عباس: إنّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغِضةً في قلوب الخلق.[١٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٦] الداء والدواء ( من ص ١٣٤ إلى ١٣٥)

# الدرس السابع عشر

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

- **ومنها**: أنّ المعاصي توهن القلب والبدن.

  - أما وهنها للقلب، فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.
  - وأما وهنها للبدن، فإنّ المؤمن قوته من قلبه، وكلّما قوي قلبه قوي بدنه. وأما الفاجر، فإنّه وإن كان قويَّ البدن، فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوجَ ما يكون إلى نفسه. وتأمَّلْ قوة أبدان فارس والروم، كيف خانتهم أحوجَ ما كانوا إليها؛ وقهرهم أهلُ الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟.

- **ومنها**: حرمان الطاعة. فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنّه يصدّ عن طاعة تكون بدَلَه، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه طريقُ ثالثةٍ، ثم رابعةٍ، وهلمّ جرًّا. فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها. وهذا كرجل أكل أكلةً أوجَبَتْ له مرضة طويلةً منعته من عدة أكَلات أطيب منها، فالله المستعان.

- **ومنها**: أن المعاصي تقصّر العمر، وتمحق بركته، ولابدّ؛ فإنّ البرّ كما يزيد في العمر، فالفجور يقصّر العمر.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]. فلا يخلو إمّا أن يكون له مع ذلك تطلّع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية، أو لا. فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك، فقد ضاع عليه عمره كلّه، وذهبت حياته باطلًا. وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير، بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسرّ المسألة أنّ عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلابإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.[١٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٧] الداء والدواء ( من ص ١٣٦إلى ١٣٨)

# الدرس الثامن عشر

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: أنّ المعاصي تزرع أمثالَها ويولّد بعضها بعضًا حتى يعزّ على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إنّ من عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وإنّ من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها. فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جانبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جرًّا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات. وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة. فلو عطّل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء، حتّى يعاودها، فتسكن نفسه، وتقرّ عينه.

ولو عطّل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسُه، وضاق صدره، وأعيَتْ عليه مذاهبُه، حتى يعاودها. حتى إنّ كثيرًا من الفسّاق لَيواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها؛ كما صرّح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأسٍ شربتُ على لذة وأخرى تداويتُ منها بها

وقال آخر:

فكـانـت دوائى وهي دائي بعينـه		كما يتداوى شـــارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبّها، ويؤثرها حتى يرسل الله -سبحانه- برحمته عليه الملائكةَ تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرّضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي، ويحبّها، ويؤثرها، حتّى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا.

فالأول قوّى جندَ الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه. وهذا قوّى جندَ المعصية بالمدد، فكانوا أعوانًا عليه.

- **ومنها**: -وهو من أخوفها على العبد- أنها تُضعِف القلبَ عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله. فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذّابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مُصِرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنَتْه.

وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.[١٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٨] الداء والدواء ( من ص ١٣٩ إلى ١٤١)

# الدرس التاسع عشر

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامَهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتّك وتمام اللذة، حتّى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدّث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان عملتُ كذا وكذا!.

وهذا الضرب من الناس لا يُعافَون، وتسدّ عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: **«كل أمتي معافىً إلا المجاهرين. وإنّ من الإجهار أن يستر الله على العبد، ثم يُصبِح يفضَح نفسه، ويقول: يا فلان عملتُ يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيهتك نفسَه، وقد بات يستره ربه»**.

• **ومنها**: أنّ كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل. فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذُ الحق بالزائد، ودفعُه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلو في الأرض والفساد: ميراث عن فرعون وقومه. والتكبّر والتجبر: ميراث عن قوم هود. فالعاصي لابس ثيابَ بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: أوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أنْ قل لقومك: لا تدخلوا مداخل أعدائي، ولا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تركبوا مراكب أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي؛ فتكونوا أعدائي، كما هم أعدائي.

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «**بُعِثتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبَد اللهُ وحدَه لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظلّ رمحي، وجُعِلَ الذلّة والصغار على من خالف أمري. ومن تشبّه بقوم فهو منهم**».[١٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[١٩] الداء والدواء ( من ص ١٤١ إلى ١٤٣).

# الدرس العشرون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: أن المعصية سبب لهوانِ العبد على ربه، وسقوطِه من عينه.

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصَوه، ولو عزّوا عليه لَعَصَمهم.

وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨].

وإنْ عظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفًا من شرّهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

• **ومنها**: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب، حتّى يهون عليه، ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك، فإنّ الذنب كلّما صغُر في عين العبد عظُم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنّه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار.

• **ومنها**: أنّ غيره من الناس والدوابّ يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إنّ الحُبارى لَتموتُ في وَكْرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إنّ البهائم تلعن عصاةَ بني آدم إذا اشتدت السَّنة، وأمسك المطر؛ وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دوابّ الأرض وهوامّها حتى الخنافس والعقارب يقولون: مُنِعْنا القَطْرَ بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقابُ ذنبه، حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له. [٢٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٠] الداء والدواء ( من ص ١٤٤ إلى ١٤٦)

# الدرس الحادي والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: أنّ المعصية تورث الذلَّ، ولابدّ؛ فإنّ العزّ كلّ العزّ في طاعة الله تعالى. قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنّه لا يجدها إلا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعِزَّني بطاعتك، ولا تُذِلَّني بمعصيتك.

قال الحسن البصري: إنّهم، وإن طقطقتْ بهم البغالُ، وهَملَجَتْ بهم البراذينُ، إنّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبَهم. أبى اللهُ إلا أن يُذِلَّ من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوب تميت القلوبَ ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانُها

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سَوءٍ ورُهبانُها

• **ومنها**: أنّ المعاصي تفسد العقل. فإنّ للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل، ولابدَّ؛ وإذا طفِئ نورُه ضعُفَ ونقَصَ.

وقال بعض السلف: ما عصى اللهَ أحدٌ حتّى يغيبَ عقله.

وهذا ظاهر، فإنّه لو حضره عقله لَحجَزه عن المعصية، وهو في قبضة الربّ تعالى وتحت قهره، وهو مطّلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكتُه شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعافُ أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يُقدِم على الاستهانة بذلك كلّه والاستخفافِ به ذو عقل سليم؟[٢١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢١] الداء والدواء ( من ص ١٤٦ إلى ١٤٨)

# الدرس الثاني والعشرون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: أنّ الذنوب إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها، فكان من الغافلين؛ كما قال بعض السلف في قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أنّ القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف. فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولّاه عدوّه، ويسوقه حيث أراد.

• **ومنها**: أنّ الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فإنّه لعن على معاصٍ، وغيرُها أكبرُ منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصولة، والنامصة والمتنمّصة، والواشرة والمستوشرة.

ولعن آكل الربا، وموكِله، وكاتبه، وشاهديه.

ولعن المحلِّلَ والمحلَّلَ له.

ولعن السارق.

ولعن شارب الخمر، وساقيها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها، وحاملها، والمحمولةَ إليه.

ولعن من غير منارَ الأرض، وهي أعلامها وحدودها.

ولعن من لعن والديه.

ولعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بالسهام.

ولعن المخنّثين من الرجال، والمترجّلات من النساء.

ولعن من ذبح لغير الله.

ولعن من أحدث حدَثًا أو آوى مُحدِثًا.

ولعن المصوّرين.

ولعن من عمِلَ عملَ قوم لوط.

ولعن من سبّ أباه ومن سبّ أمّه.

ولعن من كمَّهَ أعمى عن الطريق.

ولعن من أتى بهيمة.

ولعن من وسم دابة في وجهها.

ولعن من ضارَّ بمسلم أو مكر به.

ولعن زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج.

ولعن من أفسد امرأة على زوجها، أو مملوكًا على سيّده.

ولعن من أتى امرأةً في دبرها.

وأخبر أن من باتت مهاجرةً لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح.

ولعن من انتسب إلى غير أبيه.

وأخبر أنّ من أشار إلى أخيه بحديدة فإنّ الملائكة تلعنه.

ولعن من سبّ أصحابه.

وقد لعن اللهُ من أفسد في الأرض، وقطَع رحِمَه، وآذاه وآذى رسولَه -صلى الله عليه وسلم-.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى.

ولعن الذين يرمُون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المؤمن.

ولعن رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– الرجلَ يلبس لِبسةَ المرأة، والمرأةَ تلبس لبسةَ الرجل.

ولعن الراشي، والمرتشي، والرائش، وهو الواسطة في الرشوة.

ولعن علي أشياء أخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضا فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته، لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.[٢٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٢] الداء والدواء ( من ص ١٤٨ إلى ١٥٢)

# الدرس الثالث والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها:** حرمان دعوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ودعوة الملائكة. فإنّ الله –سبحانه– أمر نبيّه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} [غافر: ٧ – ٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين، المتبعين لكتابه وسنة رسوله، الذين لا سبيل لهم غيرهما. فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذ لم يتصف بصفات المدعو له بها. والله المستعان.

• **ومن عقوبات المعاصي:** ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: كان النبي –صلى الله عليه وسلم– ممّا يُكْثِرُ أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟**» فيقصّ عليه من شاء الله أن يقُصَّ. وإنّه قال لنا ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنّهما ابتعثاني، وإنّهما قالا لي: انطلِقْ، وإنّي انطلقتُ معهما. وإنّا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخَرُ قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هو يَهوي بالصخرة لرأسه، فيثلَغُ رأسَه، فيتدَهْدَهُ الحجرُ ها هنا، فيتبع الحجرَ، فيأخذه، فلا يرجع إليه**

حتى يصحّ رأسه كما كان. ثم يعود عليه، فيفعل به مثلَ ما فعل المرّةَ الأولى». قال: «قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ. فانطلقنا، فأتَينا على رجلٍ مستلقٍ لِقفاه، وإذا آخَرُ قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شِقَّيْ وجهِه، فيُشَرْشِرُ شِدْقَه إلى قفاه، ومِنخرَه إلى قفاه، وعينَه إلى قفاه. ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول. فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى». قال: «قلتُ سبحان الله! ما هذان ؟ فقالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.فانطلقنا، فأتينا على مثل التنّور، وإذا فيه لغَط وأصوات». قال: «فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عُراة، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهبُ ضَوْضَوْا ». فقال: «قلتُ ما هؤلاء ؟ قال: "قالا لي: انطلِقْ انطلق».

قال: «فانطلقنا، فأتينا على نَهر أحمر مثل الدم، فإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يسبح، وإذا على شط النهر رجلٌ قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارةَ، فيفغر له فاه، فيُلقِمه حجرًا، فينطلق، فيسبح، ثم يرجع إليه. كلّما رجع إليه فغَر له فاه، فألقمه حجرًا قلتُ لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ. فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المَرْآةِ، كأكره ما أنت راءٍ رجلًا مَرْأىً، وإذا هو عنده نارٌ يحُشها ويسعى حولها». قال: «قلتُ لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ.فانطلقنا، فأتينا على روضة مُعْتمّة فيها من كلّ نَور الربيع، وإذا بين ظهرانَيِ الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثرِ ولدان رأيتُهم

قطُّ». قال: «قلتُ: ما هذا؟ وما هؤلاء ؟ "قال: "قالا لي: انطلِقْ انطلِقْ. فانطلقنا، فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أر دوحةً قطّ أعظمَ منها ولا أحسنَ !» قال: «قالا لي: ارقَ فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنيّة بلَبِنِ ذهب ولبِنِ فضّة». قال: «فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففُتِح لنا، فدخلناها، فتلقّانا رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر منهم كأقبح ما أنت راءٍ». قال:«قالا لهم: اذهبوا، فقَعُوا في ذلك النهر». قال: «وإذا نهر معترض يجري كأنّ ماءَه المحضُ في البياض. فذهبوا، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، وقد ذهب ذلك السوء عنهم».

قال:«قالا لي: هذه جنّة عدن، وهذاك منزلك».

قال:«فسمَا بصَري صُعُدًا، فإذا قصرٌ مثل الرَّبابة البيضاء».

قال: «قالا لي: هذاك منزلك». قال: «قلت لهما: بارك الله فيكما، فذراني فأدخُلَه. قالا: أمّا الآن فلا، وأنت داخله»

قال: «قلت لهما: فإنّي رأيتُ منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟». قال: «قالا: أمَا إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يثلَغ رأسُه بالحجر، فإنّه الرجل يأخذ القرآنَ، فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

**وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شدقُه إلى قفاه، ومنخرُه إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكَذْبةَ تبلغُ الآفاق.**

**وأما الرجال والنساء العُراة الذين هم في مثل بناء التنّور، فإنّهم الزناة والزواني.**

**وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يسبَح في النهر، ويُلقَم الحجارةَ، فإنه آكل الربا.**

**وأما الرجلُ الكريهُ المَرآةِ الذي عند النار يحُشّها ويسعى حولها، فإنّه مالكٌ خازنُ جهنم.**

**وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنّه إبراهيم. وأما الولدان الذين حوله، فكلُّ مولودٍ مات على الفطرة».** وفي رواية البرقاني: **«وُلِدَ على الفطرة»** فقال بعض المسلمين؛ يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **«وأولاد المشركين.وأما القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسنٌ، وشطرٌ منهم قبيحٌ، فإنّهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سيئًا، تجاوز الله عنهم».**[٢٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٢٣] الداء والدواء ( من ص ١٥٢ إلى ١٥٧)

# الدرس الرابع والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن آثار الذنوب والمعاصي**: أنها تُحدِث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن. قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

قال مجاهد: إذا ولّى الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس اللهُ بذلك القَطْرَ، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحبّ الفساد. ثم قرأ: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} الآية، ثم قال: أما والله ما هو بحرَكم هذا، ولكن كلُّ قرية على ماءٍ جارٍ فهو بحر. والظاهر –والله أعلم– أنّ "الفسادَ" المرادُ به الذنوبُ وموجباتها.

ويدل عليه قوله: {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}. فهذا حالنا، وإنّما أذاقنا الشيءَ اليسيرَ من أعمالنا، فلو أذاقنا كلَّ أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

• **ومن تأثير معاصي الله في الأرض**: ما يحِل بها من الخسف، والزلازل، ومَحْقِ بركتِها. وقد مر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم، ومن شرب مياههم، ومن الاستقاء من آبارهم، حتى أمر أن يُعلَف العجينُ الذي عُجنَ بمائهم للنواضح، لتأثير شؤم المعصية في الماء.

وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما تُرمَى به من الآفات. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وُجِدَت في خزائن بني أمية حنطةٌ، الحبةُ بقدر نواة التمر. وهي في صُرّة مكتوبٍ عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل.

وكثير من هذه الآفات أحدثها الله –سبحانه– بما أحدث العباد من الذنوب. وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنّما حدثت من قرب.

وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: **«خلق الله آدم، وطولُه في السماء ستّون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقصُ حتّى الآن».**[٢٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٤] الداء والدواء ( من ص ١٥٧ إلى ١٦١)

# الدرس الخامس والعشرون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوبات الذنوب**: أنّها تطفئ من القلب نارَ المغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن. فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخَبَث والصفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَث الذهب والفضة والحديد. وأشرف الناس وأعلاهم همّةً أشدُّهم غيرة على نفسه، وخاصته، وعموم الناس.

ولهذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– أغيرَ الخلق على الأمة، والله –سبحانه– أشدّ غيرةً منه، كما ثبت في الصحيح عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: **«أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغيَرُ منه، والله أغيَرُ منّي»**.

وفي الصحيح أيضًا عنه أنّه قال في خطبة الكسوف: **«يا أمَّةَ محمَّد، ما أحدٌ أغيرَ من الله أن يزنيَ عبدُه، أو تزنيَ أمَتُه»**.

وفي الصحيح أيضا عنه أنّه قال: **«لا أحدَ أغيرُ من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشِّرين ومنذرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه»**.

والمقصود وفي أنه كلّما اشتدّت ملابسته الذنوب أخرجت من القلب الغيرةَ على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره. وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثّه عليه، ويسعى له في تحصيله. ولهذا كان الديّوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه. وكذلك محلّل الظلم والبغي لغيره، ومزيّنه له. فانظر ما الذي حملت عليه قلة المغيرة! وهذا يدلّك على أنّ أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له. فالغيرة تُحمي القلبَ، فتحمَى له الجوارحُ، فتدفع السوء والفواحش.

وعدمُ الغيرة يميت القلبَ، فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة.[٢٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٥] الداء والدواء ( ص ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨)

# الدرس السادس والعشرون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «**الحياء خير كله**». وقال: «**إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستَحْي فاصنَعْ ما شئتَ**».

والمقصود أنّ الذنوب تُضْعِف الحياء من العبد حتى ربّما انسلخ منه بالكلية، حتى إنّه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء. وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع، كما قيل:

وإذا رأى إبليسُ طلعةَ وجهه حَيَّا، وقال: فديتُ مَن لا يفلحُ

والحياء مشتقّ من الحياة، والغيث يسمَّى "حيًا" بالقصر لأنّ به حياةَ الأرض والنبات والدوابّ، وكذلك بالحياء حياةُ الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه ميِّتٌ في الدنيا شقيٌّ في الآخرة.

وبيّن الذنوب وبيّن قلّة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكلّ منهما يستدعي الآخر، ويطلبه حثيثًا.

ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحْيِ من معصيته لم يستحيِ من عقوبته.[٢٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٦] الداء والدواء ( ص١٦٨، ١٦٩، ١٧٠)

# الدرس السابع والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوبات الذنوب:** أنّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الربّ –جل جلاله–، وتُضْعِف وقارَه في قلب العبد، ولابدّ، شاء أم أبى. ولو تمكّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرّأ على معاصيه.

وربما اغترّ المغترّ وقال: إنما يحملني على المعاصى حسنُ الرَّجاء وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي.

وهذا من مغالطة النفس، فإنّ عظمةَ الله وجلالَه في قلب العبد وتعظيمَ حرماته تحول بينه وبيّن الذنوب.

فالمتجرّئون على معاصيه ما قدروه حقّ قدره، وكيف يقدره حقَّ قدره أو يعظِّمه ويكبّره ويرجو وقاره ويُجلّه من يهون عليه أمرُه ونهيُه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل!.

وكفى بالعاصي عقوبةً أن يضمحلَّ من قلبه تعظيمُ الله –جل جلاله–، وتعظيمُ حرماته، ويهونَ عليه حقّه.

• **ومن بعض عقوبة هذا:** أن يرفع الله –عَزَّ وَجَلَّ– مهابتَه من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفّون به، كما هان عليه أمره، واستخفّ به. فعلى قدر محبة العبد لله يحبّه الناس.

وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماتِه يعظّم الناس حرماته.

وكيف ينتهك عبدٌ حرماتِ الله، ويطمع أن لا ينتهك الناسُ حرماته؟ أم كيف يهون عليه حقُّ الله، ولا يهوّنه الله على الناس؟ أم كيف يستخفّ بمعاصي الله، ولا يستخِفّ به الخلق؟.

وقد أشار -سبحانه- إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابَها بما كسبوا، وغطّى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنّه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيّعهم كما ضيّعوا أمره.

ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]، فإنهم لما هان عليهم السجود له، واستخفّوا به، ولم يفعلوه، أهانهم، فلم يكن لهم من مُكرِمٍ بعد أن أهانهم. ومن ذا يكرِم من أهانه الله، أو يهين من أكرمه الله ؟.[٢٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٧] الداء والدواء ( من ص ١٧٠ إلى ١٧٢)

# الدرس الثامن والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها**: أنّها تستدعي نسيانَ الله لعبده، وتركَه، وتخليتَه بينه وبيّن نفسه وشيطانه. وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة.

قال قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)} [الحشر: ١٨ - ١٩].

فأمر بتقواه، ونهى أن يتشبّه عباده المؤمنون بمن نسيَه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي أنساه مصالحَها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه ذلك كلَّه جزاءً لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره. فترى العاصي مهمِلًا لمصالح نفسه، مضيِّعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتّبع هواه، وكان أمره فرطًا. قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرّط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذّة إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف!.

أحـــلامُ نـــومٍ أو كـــظـــلّ زائـــل ... إنّ الـلـبـيـبَ بمـثـلـهـا لا يُخـدَعُ

وأعظمُ العقوبات نسيانُ العبد لنفسه، وإهمالُه لها، وإضاعتُه حظَّها ونصيبَها من الله، وبيعُها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن. فضيَّعَ من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به مَن عنه كلُّ الغنى، ومنه كلُّ العِوَض.

من كلّ شــــيء إذا ضــيّعتَه عوضٌ وما من الله إنْ ضــيّعتَه عوضُ

فالله –سبحانه– يعوّض عن كلّ ما سواه، ولا يعوّض منه شيء.

ويغني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء. ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء. ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء. فكيف يستغني العبد عن طاعةِ مَن هذا شأنُه طرفةَ عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيّع أمرَه حتى يُنسيَه نفسَه، فيخسرَها، ويظلمَها أعظمَ الظلم؟ فما ظلم العبدُ ربَّه، ولكن ظلم نفسَه. وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسَه!.[٢٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٢٨] الداء والدواء ( من ص١٧٢ إلى ١٧٤)

# الدرس التاسع والعشرون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها**: أنّها تُخرِجُ العبدَ من دائرة الإحسان، وتمنعه ثوابَ المحسنين. فإنّ الإحسان إذا باشر القلبَ منَعَه من المعاصي، فإن من عَبَدَ الله كأنّه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبيّن إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها. فإذا خرج من دائرة الإحسان فاته صحبةُ رُفَقِه الخاصة، وعيشُهم الهنيء، ونعيمُهم التام.

فإن أراد الله به خيرًا أقرّه في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً ذاتَ شرفٍ يرفع إليه فيها الناسُ أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن. فإيّاكم إيّاكم، والتوبةُ معروضةٌ بعد**». خرَج من دائرة الإيمان، وفاته رفقةُ المؤمنين وحسنُ دفاع الله عنهم، فإنّ الله يدفع عن الذين آمنوا، وفاته كلُّ خير رتّبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كلُّ خصلة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

والمقصود أنّ الإيمان سبب جالب لكل خير، وكلُّ خير في الدنيا والآخرة فسببُه الإيمان، وكلُّ شرّ في الدنيا والآخرة فسببُه عدمُ الإيمان. فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه

وبينه؟ ولكن لا يُخرج من دائرة عموم المسلمين، فإنْ استمرّ على الذنوب وأصرّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية. ومن هنا اشتدّ خوفُ السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر. [٢٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٢٩] الداء والدواء ( ص ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧)

# الدرس الثلاثون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه، أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدَعه يخطو إلى الله خطوةً. هذا إن لم تردّه عن وجهته إلى ورائه! فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب. والقلب إنّما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيّره، فإن زالت بالكلّية انقطع عن الله انقطاعًا يبعُد تداركُه، والله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يُمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوته، ولا بدّ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي –صلى الله عليه وسلم– وهي: الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلَع الدَّين وغلبة الرجال.

**وكل اثنين منها قرينان:**

- فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقّعه أحدثَ الهمَّ، وإن كان من أمر ماضٍ قد وقع أحدثَ الحزَنَ.
- والعجز والكسل قرينان، فإنّ تخلّفَ العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

- والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.
- وضلَع الدين وقهر الرجال قرينان، فإنّ استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلَع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود أنّ الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء ؛ ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله وتحوُّل عافيته، وفجاءة نقمته، وجميع سَخَطه.

• **ومن عقوبات الذنوب**: أنها تُزيل النِّعم وتُحِلّ النِّقَم. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: ما نزل بلاءً إلا بذنب، ولا رُفِعَ بلاءً إلا بتوبة.

وقد قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: ٥٣].[٣٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٠] الداء والدواء ( من ص ١٧٨ إلى ١٨٠)

# الدرس الحادي والثلاثون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها**: ما يلقيه الله –سبحانه– من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلّا خائفًا مرعوبًا.

فإنّ الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوفُ في حقّه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمِنُه مخاوفَ، فلا تجد العاصي إلا وقلبُه كأنّه بين جناحَي طائرٍ، إنْ حرّكت الريحُ الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقعَ قدَمٍ خاف أن يكون نذيرًا بالعطب. يحسب كل صيحةٍ عليه، وكل مكروه قاصدًا إليه. فمن خاف الله آمنه من كلّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء.

بـذا قضـــى اللهُ بين النـاس مـذ خُلِقوا          أنّ المــخــاوفَ والإجــرامَ في قَــرَنِ

• **ومن عقوباتها**: أنها تُوقعُ الوحشةَ العظيمةَ في القلب، فيجد المذنب نفسَه مستوحشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبيّن ربه، وبينه وبيّن الخلق، وبينه وبيّن نفسه. وكلّما كثرت الذنوب اشتدّت الوحشة. وأمرُّ العيشِ عيشُ المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيشُ المستأنسين. فلو نظر العاقل، ووازن بين لذة المعصية وما تُوقِعُه من الخوف والوحشة، لَعلِمَ سوءَ حاله وعظيم غَبْنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف.

فـإن كنـتَ قـد أوحشـــتـك الـذنوبُ فـدَعْهـا إذا شـــئـتَ واســـتـأْنسِ

وسرّ المسألة أنّ الطاعة تُوجب القربَ من الربّ، وكلّما اشتدّ القرب قوي الإنس؛ والمعصية توجب البعدَ من الربّ، وكلّما ازداد البعد قويت الوحشة. ولهذا يجد العبد وحشةً بينه وبيّن عدوّه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا وقربًابينه وبيّن من يحبّ، وإن كان بعيدًا عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلّما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشدُّ منها وحشةُ المعصية، وأشدُّ منها وحشةُ الشرك والكفر. ولا تجد أحدًا يلابس شيئًا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابَسَه منه، فتعلو الوحشةُ وجهَه وقلبَه، فيستوحِشُ، ويُستوحَشُ منه.[٣١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣١] الداء والدواء ( ص ١٨٢، ١٨٣)

# الدرس الثاني والثلاثون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها**: أنها تصرِفُ القلبَ عن صحّته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه. فإنّ تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وأدواؤها، ولا دواء لها إلا تركها.

وقد أجمع السائرون إلى الله أنّ القلوب لا تعطَى مُناها حتّى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها. ولا يصحّ لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرضُ قتَلَ أو كاد.

وكما أنّ من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنّة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيمَ أهلها نعيمٌ البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة. وهذا أمر لا يصدّق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا.

ولا تحسبْ أنّ قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)} [الانفطار: ١٣ – ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا،

ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأيّ عذاب أشدّ من الخوف، والهمّ، والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلّقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكلِّ وادٍ منه شعبة؟ وكلّ شيء تعلّق به وأحبّه من دون الله فإنّه يسومه سوءَ العذاب. فكلّ من أحبّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ثلاث مرّات في هذه الدار: فهو يعذَّب به قبل حصوله حتى يحصل. فإذا حصل عُذِّبَ به حالَ حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع المعارضات. فإذا سُلِبَه اشتدّ عذابُه عليه. فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ، فعذابٌ يقارنه ألمُ الفراق الذي لا يرجو عودَه، وألمُ فَواتِ ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضدّه، وألمُ الحجاب عن الله، وألمُ الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم والحسرة والحَزن تعمل في نفوسهم نظيرَ ما تعمل الهوامّ والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمرّ حتى يردّها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا، وأنسًا بربّه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبّه، وطمأنينةً بذكره، حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه !

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنّة في مثل هذه الحال، إنّهم لفي عيش طيب!

ويقول الآخر: مساكين أهلُ الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها!

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالَدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنّ في الدنيا جَنّة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظّه الغالي بأبخس الثمن، وغُبِنَ كل الغَبْن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرةٌ بقيمة السِّلَع فَسَلِ، المقوِّمين!

فيا عجبًا من بضاعةٍ معك، الله مشتريها، وثمنُها جنّةُ المأوى، والسفيرُ الذي جرى على يده عقدُ التبايع وضمِنَ الثمنَ عن المشتري هو الرسول، وقد بعتَها بغاية الهوان!

إذا كان هذا فعلَ عبدٍ بنفسه ... فمَنْ ذاله من بعد ذلك يكرِمُ

{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].[٣٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٣٢] الداء والدواء ( من ص ١٨٤ إلى ١٨٧)

# الدرس الثالث والثلاثون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنّها تُعمي بصيرَة القلب، وتطمس نوره، وتسدّ طرق العلم، وتحجب موادّ الهداية. وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحلّ، وظلام المعصية يقوى، حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم. فكم من مَهْلكٍ يسقط فيه، وهو لا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب. فيا عزّةَ السلامة، ويا سرعةَ العطب!.

ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجهَ منها سوادٌ بحسب قوتها وتزايدها. فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمةً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**إنّ هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمةً وإنّ الله منوّرها بصلاتي عليهم**».

فإذا كان يومُ المعاد وحشرِ الأجساد علت الوجوهَ علوًّا ظاهرًا يراه كلُّ أحد، حتّى يصير الوجه أسود مثل الحُمَمة. فيا لها عقوبةً لا توازن لذاتِ الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها! فكيف بقسط العبد المنغَّص المنكَّد المتعَب في زمن إنّما هو ساعة من حُلْم! فالله المستعان..

• **ومن عقوباتها:** أنّها تصغّر النفس، وتقمَعها، وتدسّيها، وتحقّرها، حتى تصير أصغر شيء وأحقره، كما أنّ الطاعة تنمّيها وتزكّيها وتكبّرها.

قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس: ٩ – ١٠]. والمعنى قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها. وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغرها بمعصية الله.[٣٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٣] الداء والدواء ( من ص ١٨٧ إلى ١٨٩)

# الدرس الرابع والثلاثون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنّ العاصي دائمًا في أسْر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه؛ فهو أسير مسجون مقيد. ولا أسيرَ أسوأ حالًا من أسير أسَرَه أعدى عدوّ له، ولا سجنَ أضيقُ من سجن الهوى، ولا قيدَ أصعبُ من قيد الشهوة. فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟ وإذا تقيّد القلب طرقته الآفاتُ من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب مثل الطائر، وكلّما علا بعد عن الآفات، وكلّما نزل احتوَشَتْه الآفات.

وفي الحديث: «**الشيطان ذئب الإنسان**». وأصل هذا كلّه أنّ القلب كلّما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلّما قرُب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتب بعضها أشدّ من بعض. فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعدُ المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

• **ومن عقوباتها:** سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه. فإنّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلةً أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده. فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده.[٣٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٤] الداء والدواء ( من ص ١٩٠ إلى ١٩٢)

# الدرس الخامس والثلاثون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنّها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذمّ والصَّغار. فتسلبه اسم المؤمن، والبَرّ، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والوَرِع، والمصلح، والعابد، والخائف، والأوّاب، والطيّب، والمرضي، ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، والغادر، وقاطع الرحم، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق و {بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} [الحجرات: ١١] التي توجب غضب الديّان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان. وتلك أسماء توجب رضي الرحمن، ودخول الجِنان، وتوجب شرف المسمَّى بها على سائر نوع الإنسان.

فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجَباتها لكان في العقل ناهٍ عنها. ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجَباتها لكان في العقل آمِرٌ بها. ولكن لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا مقرّب لمن باعد، ولا مبعّد لمن قرّب {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].

• **ومن عقوباتها:** أنها تؤثّر بالخاصّية في نقصان العقل. فلا تجد عاقلَين أحدهما مطيع لله، والآخر عاص، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصحّ، ورأيه أسدّ، والصواب قرينه.

فلا إله إلا الله، ما أنقَصَ عقلَ من باع الدرَّ بالبعر، والمسكَ بالرجيع، ومرافقةَ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم، ولَعَنهم، وأعدّ لهم جهنَّم وساءت مصيرًا!.[٣٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٥] الداء والدواء ( ص١٩٣، ١٩٤، ١٩٦)

# الدرس السادس والثلاثون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن أعظم عقوباتها:** أنها توجب القطيعة بين العبد وبيّن ربه -تبارك وتعالى-، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير، واتصلت به أسباب الشرّ. فأيّ فلاح وأيّ رجاء وأيّ عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبيّن وليّه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفة عين، ولابدّ له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبيّن أعدى عدوّ له، فتولّاه عدوّه، وتخلّى عنه وليّه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب!.

قال بعض السلف: رأيتُ العبد مُلقًى بين الله -سبحانه- وبيّن الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولّاه الشيطان، وإن تولّاه الله لم يقدر عليه الشيطان.

• **ومن عقوباتها:** أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة، تمحق بركة الدين والدنيا. فلا تجد أقلَّ بركةً في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله. وما مُحِقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق. قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالي: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)} (٢) [الجن: ١٦] وإنّ العبد لَيُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه.

فمن ها هنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل. فكلُّ وقتٍ عصيتَ الله فيه، أو مالٍ عُصِيَ اللهُ به، أو بدنٍ، أو جاهٍ، أو علمٍ، أو عملٍ، فهو على صاحبه، ليس له. فليس عمرُه وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع اللهَ به.[٣٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٦] الداء والدواء ( ص ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣)

# الدرس السابع والثلاثون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنها تجعل صاحبَها من السِّفْلة بعد أن كان مُهَيَّأً لأن يكون من العِلْية. فإنّ الله خلق خلقَه قسمين: عِلية وسِفلة، وجعل علّيين مستقرّ العلية، وأسفل سافلين مستقرّ السفلة. وجعل أهل طاعته الأعلَين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلِين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرمَ خلقه عليه، وأهلَ معصيته أهونَ خلقه عليه، وجعل العزّة لهؤلاء، والذلّة والصغار لهؤلاء. كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال: «**جُعل الذلّة والصَّغار على من خالف أمري**».

فإنّ الذنب وإن صغر، فإنّ مقابلةَ العظيم الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الكريم الذي لا أجلَّ منه ولا أجملَ، المنعِم بجميع أصناف النعم دقيقِها وجليلِها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها. فإنّ مقابلةَ العظماء والأجلّاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كلُّ أحد مؤمن وكافر. وأرذلُ الناس وأسقطُهم مروءةً مَن قابلَهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والأرض، وملِك السموات والأرض، وإلهِ أهل السموات والأرض؟ ولولا أنّ رحمتَه غلبت غضبَه، ومغفرتَه سبقت عقوبتَه، وألّا لتدكدكت الأرض بمن قابَلَه بما لا تليق مقابلتُه به. ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض من معاصي العباد.

قال –تعالى–: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)} [فاطر: ٤١].

فتأمّلْ ختمَ هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: الحليم الغفور، كيف تجد تحت ذلك أنّه لولا حلمُه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرّت السموات والأرض.[٣٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٧] الداء والدواء ( ص٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠)

# الدرس الثامن والثلاثون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنّها تُجرّئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات. فيجترئ عليه الشياطين بالأذى، والإغواء، والوسوسة، والتخويف، والتحزين، وإنسائه ما مصلحتُه في ذكره، ومضرّتُه في نسيانه؛ فتجترئ عليه الشياطين حتّى تؤزه إلى معصية الله أزًا.

ويجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره. ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه، حتّى الحيوان البهيم! قال بعض السلف: إنّي لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابّتي. وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله. وكذلك تجترئ عليه نفسُه، فتتأسد عليه، وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه، ولم تنقَدْ له. وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

• **ومن عقوباتها:** أنّها تخون العبدَ أحوجَ ما يكون إلى نفسه. فإن كلّ أحد محتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضرّه في معاشه ومعاده، وأعلمُ الناس أعرَفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكْيَسُهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه، وكفّها عما يضرّه.

وفي ذلك تفاوتت معارفُ الناس وهممُهم ومنازلُهم. فأعرفُهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشَدُهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفَههم من عكسَ الأمَر.

والمعاصي تخون العبد أحوجَ ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظّ الأشرف العالي الدائم على الحظّ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوبُ عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين.

وهذا كلّه أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده، وضيّعهم، وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعَهم في الدفع عنه بغير قوة! ولقد قطع خوفُ الخاتمة ظهورَ المتقين، وكأنّ المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان! {أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩)} [القلم: ٣٩].[٣٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٣٨] الداء والدواء ( ص٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٩)

# الدرس التاسع والثلاثون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنّها تعمي القلب، فإن لم تُعْمِه أضعفَتْ بصيرتَه، ولابدَّ. وقد تقدم بيانُ أنها تضعفه، ولابدّ. فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى، وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره، بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فمعلوم أنّ المعاصي والذنوب تُعمي بصيرةَ القلب فلا يدرك الحقّ كما ينبغي، وتُضعِفُ قوتَه وعزيمتَه فلا يصبر عليه. بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه، كما ينعكس سيرُه، فيدرك الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروفَ منكرًا، والمنكرَ معروفًا. فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقرّ النفوس المبْطِلَة التي رضيَتْ بالحياة الدنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه.

ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت كافيةً داعيةً إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

• **ومن عقوباتها:** أنّها مددٌ من الإنسان يُمِدّ به عدوَّه عليه، وجيشٌ يقوّيه به على حربه.

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاحٌ ومددٌ يُمِدُّ بها العبدُ أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه. وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نفسه [٣٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٣٩] الداء والدواء ( ص٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٤٢)

# الدرس الأربعون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنها تنسي العبد نفسَه، فإذا نسي نفسَه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسَه؟ وإذا نسيَ نفسه، فأيَّ شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسَه؟

قيل: نعم، ينسى نفسَه أعظمَ نسيان. قال –تعالى–: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)} [الحشر: ١٩].

فلما نسوا ربَّهم –سبحانه– نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: ٦٧] فعاقب –سبحانه– من نسِيَه عقوبتين: إحداهما: أنه –سبحانه–نسيه. والثانية: أنّه أنساه نفسَه.

ونسيانُه –سبحانه– للعبد: إهمالُه، وتركُه، وتخلّيه عنه، وإضاعتُه؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم!

وأما إنساؤه نفسَه فهو: إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، يُنسيه ذلك جميعَه، فلا يُخطِره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همّتَه فيرغبَ فيه، فإنه لا يمرّ بباله حتى يقصدَه ويُؤثِره.

وأيضًا فيُنسيه عيوبَ نفسه ونقصَها وآفاتِها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها.

وأيضًا يُنسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامَها، فلا يخطر بقلبه مداواتُها، ولا السعيُ في إزالة عللها وأمراضهَا التي تؤول به إلى الفساد والهلاك. فهو مريض مثخَن بالمرض، ومرضه مُترامٍ به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته. وهذا من أعظم العقوبة العامةوالخاصة.

فأيُّ عقوبةٍ أعظمُ من عقوبة مَن أهمل نفسَه، وضيّعها، ونسي مصالحها، وداءَها ودواءَها، وأسبابَ سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

ومن تأمّل هذا الموضع تبيّن له أنّ أكثر هذا الخلق قد نسُوا أنفسَهم حقيقةً، وضيّعوها، وأضاعوا حظّها من الله، وباعوها رخيصةً بثمن بخس بيعَ الغبن. وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر كلّ الظهور يومَ التغابن، يومَ يظهر للعبد أنه غُبنَ في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإنّ كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظَّهم فيها ولذّاتِهم بالآخرة وحظِّهم فيها، فأذهبوا طيّباتِهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنّوا إليها. وكان سعيُهم لتحصيلها، فباعوا، واشتروا، واتجروا. وباعوا آجلًا بعاجل، ونسيئةً بنقد، وغائبًا بناجزٍ؛ وقالوا: هذا هو الحزم.

وأمّا الرابحون، فإنّهم باعوا فانيًا بباقٍ، وخسيسًا بنفيسٍ، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا مِن أولها إلى آخرها حتّى نبيع حظنا من الله والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبدُ منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغَفْوةِ حُلْمٍ، لا نسبة له إلى دار البقاء البتة؟

والمقصود أنّ الذنوب تُنسي العبدَ حظَّه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبةً. والله المستعان.[٤٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٠] الداء والدواء ( ص٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨)

# الدرس الحادي والأربعون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومن عقوباتها:** أنها تُزيل النِّعَمَ الحاضرةَ، وتقطع النعم الواصلة، فتُزيل الحاصلَ، وتمنع الواصلَ. فإنّ نعم الله ما حُفِظ موجودُها بمثل طاعته، ولا استُجْلِبَ مفقودُها بمثل طاعته، فإنّ ما عنده لا يُنال إلا بطاعته.

وقد جعل الله –سبحانه– لكل شيء سببًا وآفةً: سببًا يجلبه، وآفة تبطله. فجعل أسبابَ نعمِه الجالبةَ لها طاعتَه، وآفاتِها المانعةَ منها معصيتَه. فإذا أراد حفظَ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذَلَه حتى عصاه بها.

ومن العجب علمُ العبدِ بذلك مشاهدةً في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه مِن أخبار مَن أزيلت نِعمُ الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله، كأنّه مستثنىً من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم، وكأنّ هذا أمر جارٍ على الناس لا عليه، وواصلٌ إلى الخلق لا إليه! فأيّ جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

• **ومن عقوباتها:** أنها تباعد عن العبد وليَّه، وأنفعَ الخلقِ له، وأنصحَهم له، ومَن سعادتُه في قربه منه، وهو الملَك الموكَّلُ به. وتُدني منه عدوَّه، وأغشَّ الخلق له وأعظمَهم ضررًا له، وهو الشيطان. فإنّ العبد إذا عصى الله تباعد منه الملَك بقدر تلك المعصية، حتّى إنّه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبدُ ابتدره الملَك والشيطانُ، فإن ذكر الله وكبّره وحمِده وهلّله طرد الملكُ الشيطانَ وتولّاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه، وتولّاه الشيطان

والملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم. فإذا كان ابن آدم يتأذّى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظنّ بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.[٤١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤١] الداء والدواء ( ص٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٦)

# الدرس الثاني والأربعون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

- **ومن عقوباتها**: أنّها تستجلب موادّ هلاك العبد في دنياه وآخرته.

فإنّ الذنوب هي أمراض متى استحَكمَتْ قتلَتْ، ولابدّ. وكما أنّ البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاءٍ يحفظ قوته، واستفرغ يستفرغ الموادّ الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحِميةٍ يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضررَه؛ فكذلك القلبُ لا تتمّ حياتُه إلا بغذاءٍ من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوته، واستفرغ بالتوبة النصوح يستفرغ الموادّ الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحميةٍ تُوجِب له حفظ الصحة وتجنّب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضادّ الصحة. والتقوى اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادّة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب الموادّ المؤذية، وتُوجب التخليطَ المضادَّ للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح.

فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط الرديئة وموادّ المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟

ولقد أحسن القائل:

جســـمُـك بالحِمْيـة حصّـــنتَـه مخـــافـــةً مـــن ألم طـــاري
وكـــان أولى بـــك أن تحـتـــمـــي من المعـاصـــي خشـــيـةَ النــار

فمن حفظ القوةَ بامتثال الأوامر، واستعمل الحِمْيةَ باجتناب النواهي، واستفرغ التخليطَ بالتوبة النصوح لم يدَعْ للخير مطلبًا، ولا من الشرّ مهربًا. والله المستعان.[٤٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٤٢] الداء والدواء ( ص ٢٥٧، ٢٥٨)

# الدرس الثالث والأربعون

## (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

فاستحضِرْ بعض العقوبات التي رتّبها الله –سبحانه– على الذنوب، وجوِّزْ وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلى هجرانها. وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

- **فمنها**: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكِنّة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الربّ، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهيرَ القلب، وجعل الصدر ضيّقًا حرجًا كأنما يصعّد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها ونكسها بحيث تبقى منكوسة؛ كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– أنه قال: القلوب أربعة: فقلبٌ أجرَدُ فيه سراج يُزهِر، فذلك قلب المؤمن. وقلبٌ أغلَفُ، فذلك قلب الكافر. وقلبٌ منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلبٌ تُمِدُّه مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غَلَبَ عليه منهما.

- **ومنها**: التثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها.

• **ومنها:** جعل القلب أصمّ لا يسمع الحقّ، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه؛ فيصير النسبة بين القلب وبين الحقّ الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصمّ والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام.

والمقصود أنّ من عقوبات المعاصي جعلَ القلبِ أعمى أصمّ أبكم.[٤٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٣] الداء والدواء ( من ص٢٧٣ إلى ٢٧٥)

# الدرس الرابع والأربعون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: الخسف بالقلب، كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل سافلين، وصاحبه لا يشعر. وعلامة الخسف به أن لا يزال جوّالًا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أنّ القلب الذي رفعه الله وقرّبه إليه لا يزال جوّالًا حول البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: إنّ هذه القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشّ.

• **ومنها**: مسخ القلب، فيُمسَخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته. فمن القلوب ما يمسَخ على خُلُق خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خُلُق كلب أو حمار أو حيّة أو عقرب وغير ذلك.

وقد شبّه الله –تعالى– أهل الجهل والغيّ بالحُمُر تارةً، وبالكلب تارةً، وبالأنعام تارةً. وتقوى هذه المشابهة باطنًا، حتّى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيفًا يراه المتفرّسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كلّ أحد. ولا يزال يقوى حتى يستتبعَ الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التامّ، فيقلب الله –سبحانه– الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة: يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله، كم من قلب منكوس وصاحبُه لا يشعر! وقلبٍ ممسوخ، وقلب مخسوفٍ به! وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرورٍ بستر الله عليه، ومستدرج بنعَم الله عليه! وكل هذه عقوبات وإهانة، ويظنّ الجاهل أنها كرامة.[٤٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٤] الداء والدواء ( من ص ٢٧٥ إلى ٢٧٧)

# الدرس الخامس والأربعون

# (من آثار وأضرار الذنوب والمعاصي)

• **ومنها**: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق.

• **ومنها**: نكسُ القلبِ حتى يرى الباطل حقًّا والحق باطلًا، والمعروف منكرًا والمنكرَ معروفًا، ويُفسد ويرى أنه يُصلح، ويصدّ عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنّه على الهدى، ويتّبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه. وكلّ هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب.

• **ومنها**: حجاب القلب عن الربّ في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)} [المطففين: ١٤ – ١٥]. فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبيّن قلوبهم، فيصلوا إليها، فيَروا ما يُصلِحها ويزكّيها، وما يُفسدها ويُشقيها؟ وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبيّن ربهم، فتصل القلوب إليه، فتفوز بقربه وكرامته، وتقرَّ به عينًا، وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبيّن قلوبهم، وحجابًا بينهم وبيّن ربّهم وخالقهم.

• **ومنها**: المعيشة الضَّنْك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة. قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)} [طه: ١٢٤].

وفُسِّرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنّه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثبات، فإنّ عمومها من حيث المعنى، فإنّه –سبحانه– رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره.[٤٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٥] الداء والدواء ( من ص ٢٧٧ إلى ٢٧٩)

# الدرس السادس والأربعون

## (عظائم الذنوب وتضاعف عقوباتها حسب عِظَمَها وفسادها)

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنى، واحتجّ بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم ؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَك**» قال: قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطعَمَ معك**». قال: قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تُزانيَ بحليلة جارك**». فأنزل الله –سبحانه– تصديقَها: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان: ٦٨].

والنبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر من كل نوع أعلاه، ليطابق جوابُه سؤالَ السائل، فإنه سأله عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمّن ذكرَ أعظمِ أنواعها، وما هو أعظم كل نوع.

**فأعظم أنواع الشرك**: أن يجعل العبد لله نِدًّا.

**وأعظم أنواع القتل**: أن يقتل ولدَه خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

**وأعظم أنواع الزنى**: أن يزني بحليلة جاره، فإنّ مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحقّ.

فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظمُ إثمًا وعقوبة من التي لا زوج لها، إذ فيه انتهاكُ حرمة الزوج، وإفسادُ فراشه، وتعليقُ نسبٍ عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثمًا وجرمًا من الزنى بغير ذات البعل.

فإن كان زوجها جارًا له انضاف إلى ذلك سوءُ الجوار وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى، وذلك من أعظم البوائق. وقد ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: **«لا يدخل الجنةَ من لا يأمن جارُه بوائقَه»**.

ولا بائقةَ أعظمُ من الزنى بامرأته، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسرُ عند الله من الزنى بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخًا له أو قريبًا من أقاربه انضمّ إلى ذلك قطيعةُ الرحم، فيتضاعف الإثم.

فإن كان الجار غائبًا في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعفَ الإثمُ، حتّى إنّ الزاني بامرأة المغازي في سبيل الله يوقَف له يوم القيامة، ويقال: خُذ من حسناته ما شئتَ. قال النبي–صلى الله عليه وسلم–: **«فما ظنّكم؟»** أي ما ظنّكم أن يترك له من حسنات؟ قد حُكِّم في أن يأخذ منها ما شاء، على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة، حيثُ لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقًا يجب له عليه.

فإن اتفق أن تكون المرأة رحمًا منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها.

فإن اتفق أن يكون الزاني محصَنًا كان الإثم أعظم، فإن كان شيخًا كان أعظم إثمًا، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم.

فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظّم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة تضاعف الإثمُ.

وعلى هذا فاعتبِر مفاسدَ الذنوب، وتضاعُفَ درجاتها في الإثم والعقوبة. والله المستعان.[٤٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٦] الداء والدواء ( من ص ٢٦١ إلى ٢٦٤)

# الدرس السابع والأربعون

# (ماهو القلب السليم)

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغِلّ، والحقد، والحسد، والشحّ، والكبر، وحبّ الدنيا والرياسة. فسلِمَ من كلّ آفة تُبعده من الله، وسلِمَ من كلّ شبهة تعارض خبرَه، ومن كلّ شهوة تعارض أمرَه، وسلِمَ من كل إرادة تزاحم مراده، وسلِمَ من كلّ قاطع يقطع عن الله. فهذا القلب السليم في جنّة معجّلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنّة يوم المعاد.

ولا تتمّ له سلامته مطلقًا حتى يسلَم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحتَ كل واحدٍ منها أنواع كثيرة تتضمّن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدّت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراطَ المستقيمَ. فليس العبدُ أحوجَ منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء انفعَ له منها. فإنّ الصراط المستقيم يتضمّن علومًا وإراداتٍ وأعمالًا وتُروكًا ظاهرةً وباطنةً تجري عليه كلَّ وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثرَ مما يعلمه.

وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه. وما يقدر عليه قد تريده نفسه، وقد لا تريده كسلًا وتهاونًا أو لقيام مانعٍ وغير ذلك. وما تريده قد يفعله، وقد لايفعله. وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص، وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة، وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه، وقد يُصرَف قلبُه عنه.

وهذا كله واقعٌ سارٍ في الخلق، فمستقِل ومستكثِر.[٤٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٧] الداء والدواء ( من ص ٢٨٢ إلى ٢٨٤)

# الدرس الثامن والأربعون

## (تفاوت العقوبات بتفاوت درجات الذنوب)

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وتوفيقه فصلًا وجيزًا جامعًا، فنقول: أصلها نوعان: ترك مأمورًا وفعل محظور. وهما الذنبان اللذان ابتلى الله –سبحانه– بهما أبوي الجنّ والإنس. وكلاهما ينقسم باعتبار محلّه إلى ظاهرٍ على الجوارح، وباطنٍ في القلب.

وباعتبار متعلَّقه إلى حقّ لله، وحقّ لخلقه. وإن كان كلُّ حق لخلقه فهو متضمّن لحقّه، لكن سمّي حقًّا للخلق لأنّه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: **مَلَكيّة، وشيطانية، وسبعيه، وبهيمية**، ولا تخرج عن ذلك.

- **فالذنوب الملَكية**: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا: الشركُ بالربّ تعالى، وهو نوعان: شركٌ به في أسمائه وصفاته، وجعلُ آلهةٍ أخرى معه. وشركٌ به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العملَ الذي أُشرِكَ فيه مع الله غيرُه.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب. ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره. فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله –سبحانه– ربوبيتَه وملكَه، وجعل له ندًّا. وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

- **وأما الشيطانية**، فالتشبّه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغشّ والغلّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال. وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإنْ كانت مفسدته دونه.

- **وأما السبعية**، فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثّب على الضعفاء والعاجزين. ويتولّد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

- **وأما الذنوب البهيمية**، فمثل الشَّرَه والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج. ومنها يتولّد الزنى، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل والشحّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية. ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرّهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية.

ومن تأمّل هذا حقَّ التأمّل تبيّن له أنّ الذنوب دِهْلِيزُ الشرك، والكفر، ومنازعة الله ربوبيته.[٤٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٨] الداء والدواء ( من ص ٢٨٦ إلى ٢٨٩)

# الدرس التاسع والأربعون

# (أقسام الذنوب)

وقد دلّ القرآنُ والسنّةُ وإجماعُ الصحابةِ والتابعينَ بعدهم والأئمّةِ على أنّ من الذنوب كبائرَ وصغائرَ. قال تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. وقال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [النجم: ٣٢].

وفي الصحيح عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنّ، إذا اجتُنِبَت الكبائر**».

وهذه الأعمال المكفّرة لها ثلاث درجات:

**إحداها**: أن تقصّر عن تكفير الصغائر، لضعفِها وضعفِ الإخلاص فيها والقيام بحقوقها؛ بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الدّاء كميّةً وكيفيةً.

**الثانية**: أن تقاوم الصغائرَ، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

**الثالثة**: أن تقوَى على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوةٌ تكفّر بها بعضَ الكبائر.

فتأمَّلْ هذا، فإنّه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيحين عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «**ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟** » قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**».

وفي الصحيحين عنه –صلى الله عليه وسلم–: «**اجتنبوا السبعَ الموبقات**».

قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**».

وفي الصحيحين عنه –صلى الله عليه وسلم– أنّه سئل: أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندًّا، وهو خَلَقك**». قيل: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطعَمَ معك**». قيل: ثمّ أيّ؟ قال: «**أن تُزانيَ بحليلة جارك**». فأنزل الله تعالى تصديقها: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان: ٦٨].

واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها

والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كلّ ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم– فهو صغيرة.

وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيدٌ من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة.

وقيل: كلّ ما رتب عليه حدّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة. وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

وقيل: كلّ ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كلّ ما لعن الله أو رسولُه فاعلَه فهو كبيرة.

وقيل: هي ما ذُكِرَ من أول سورة النساء إلى قوله: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١].[٤٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٤٩] الداء والدواء ( من ص ٢٨٩ إلى ٢٩٢)

# الدرس الخمسون

## (خطورة الشرك في العبادة)

فإنّه يصدر ممن يعتقد أنّه لا إله إلا الله، وأنّه لا يضرّ وينفع ويعطي ويمنع إلا الله، وأنّه لا إله غيره ولا ربّ سواه، ولكن لا يُخلِص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارةً، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارةً. فلِلّه من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظّه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، ولِلخَلْق نصيب. وهذا حال أكثر الناس.

وهو الشرك الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه ابن حِبّان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمّة أخفى من دبيب النمل**». قالوا: وكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إنّي أعوذ بك أن أشرِك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

فالرياء كلّه شرك. قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)} [الكهف: ١١٠]. أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده. فكما تفرّد بالإلهية يجب أن يُفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيَّد بالسنّة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وهذا الشركُ في العبادة يُبطِل ثوابَ العمل، وقد يعاقَب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنّه يُنزِله منزلةَ من لم يعمله، فيعاقبَ على ترك الأمر.

فإنّ الله –سبحانه– إنما أمر بعبادته خالصة. قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البينة: ٥]. فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أُمِرَ به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصحّ، ولا يقبل منه.

ويقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل "عملًا أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء".

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر.[٥٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٥٠] الداء والدواء ( من ص ٣٠١ إلى ٣٠٤)

# الدرس الحادي والخمسون

## (الشرك بالله سبحانه يكون في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات)

**فالشرك في الأفعال** كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، و تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

وقد لعن النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجدَ يُصلى لله فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله

ومن الشرك به –سبحانه–: **الشركُ به في اللفظ**، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**». صححه الحاكم وابن حبان.

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئتَ، كما ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعَلْتَني لله نِدًّا؟ قل: ما شاء الله وحدَه**».

هذا مع أنّ الله قد أثبت للعبد مشيئة، كقوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)} [التكوير: ٢٨] فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسبِ الله وحسبِك، ومالي إلا الله وأنت،

وهذا من الله ومنكَ، وهذا من بركَات الله وبركاتك، واللهُ لي في السماء، وأنتَ لي في الأرض، أو يقول: واللهِ وحياةِ فلان، أو يقول: نذرًا لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلانًا، ونحو ذلك؟

فوازِنْ بين هذه الألفاظ وبيّن قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر: أيُّهما أفحَشُ يتبيّن لك أنّ قائلَها أولى بجواب النبي –صلى الله عليه وسلم– القائل تلك الكلمة، وأنّه إذا كان قد جعله لله نِدًّا بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه،نِدًّا لربّ العالمين.

فالسجود، والعبادة، والتوكّل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتحسّب، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبّدًا، والطواف

بالبيت، والدعاء كُلّ ذلك محضُ حقّ الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملَكٍ مقرَّب ولا نبيّ مرسَل.

وفي مسند الإمام أحمد أنّ رجلًا أُتِيَ به إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– قد أذنب ذنبًا، فلمّا وقف بين يديه قال: اللهم إنّي أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمّد فقال: «**عرَفَ الحقَّ لأهله**».

**وأما الشرك في الإرادات والنيّات**، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه. فمن أراد بعمله غيرَ وجه الله، أو نوى شيئًا غيرَ التقرّبِ إليه وطلبِ الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته. وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يقبل من أحدٍ غيرَها. وهي حقيقة الإسلام، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)} [آل عمران: ٨٥]، وهي ملّة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.[٥١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥١] الداء والدواء ( ص ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣)

# الدرس الثاني والخمسون

## (أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به)

أعظمَ الذنوب عند الله إساءةُ الظنّ به، فإنّ المسيء به الظنَّ قد ظنّ به خلافَ كماله المقدّس، وظنّ به ما يناقض أسماءه وصفاته. ولهذا توعّد الله –سبحانه– الظانّين به ظنّ السوء بما لم يتوعّد به غيرَهم، كما قال تعالى:

{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [الفتح: ٦]. وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)} [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– إنّه قال لقومه: {مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)} [الصافات: ٨٥ – ٨٧]. أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟ وماذا ظننتم به حتى عبدتم معه غيرَه؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟

فلو ظننتم به ما هو أهله من أنّه بكل شيء عليم، وعلى كلّ شيء قدير، وأنّه غنيّ عن كلّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وأنّه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرّد بتدبير خلقه، لا يشرَكه فيه غيرُه، والعالم

بتفاصيل الأمورًا فلا تخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنّهم محتاجون إلى من يعرّفهم أحوالَ الرعية وحوائجَهم، وإلى من يُعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم، وقصور علمهم.

فأما القادرُ على كلّ شيء، الغنيُّ بذاته عن كلّ شيء، العالمُ بكل شيء، الرحمنُ الرحيمُ الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء فإدخالُ الوسائط بينه وبيّن خلقه تنقُّصٌ بحقّ ربوبيته، وإلهيته، وتوحيده ؛ وظن به ظنَّ السَّوْء. وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفِطَر، وقُبحُه مستقِرّ في العقول السليمة فوقَ كلّ قبيح. ويوضّح هذا أنّ العابد معظِّم لمعبوده، متألِّه له، خاضع ذليل له.

والربّ تعالى وحده هو الذي يستحقّ كمال التعظيم والإجلال والتألّه والخضوع والذلّ. وهذا خالص حقّه، فمن أقبح الظلم أن يُعطَى حقُّه لغيره، أو يُشرَك بينه وبينه فيه، ولا سيّما إذا كان الذي جُعِلَ شريكَه في حقّه هو عبده ومملوكه، كما قال تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [الروم: ٢٨].

أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكُه شريكَه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدَرني حقَّ قدري، ولا عظّمني حقّ تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقى. [٥٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٢] الداء والدواء ( من ص ٣١٨ إلى ٣٢١)

# الدرس الثالث والخمسون

## (من أعظم المفاسد القول على الله بغير علم)

القولُ على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفُه بضدّ ما وصف به نفسَه ووصَفَه به رسولُه. فهو أشدُّ شيءٍ مناقضةً ومنافاةً لكمال من له الخلق والأمر، وقدحٌ في نفس الربوبية وخصائص الربّ.

فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك، وأعظم إثمًا عند الله. فإنّ المشرك المقِرّ بصفات الربّ خير من المعطِّل الجاحد لصفات كماله. كما أنّ من أقرَّ لمِلكٍ بالمُلْك، ولم يجحد مُلكه، ولا الصفات التي استحقّ بها الملك، لكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور يُقرّبه إليه خيرٌ ممن جحد صفاتِ المِلك وما يكون به مَلِكًا.

هذا أمر مستقرّ في سائر الفِطَر والعقول. فأين القدح في صفات الكمال والجحدُ لها، من عبادة واسطةٍ بين المعبود الحق وبيّن العابد يتقرَّب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظامًا له وإجلالًا؟ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لا دواء له.

ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أنّ ربّه فوق السموات، فقال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ

كَاذِبًا} [غافر: ٣٦ – ٣٧]. واحتجّ الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطِّلة بهذه الآية، وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب. والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان.

ولما كانت البدع المضِلّة جهلًا بصفات الله وتكذيبًا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله عنادًا وجهلًا كانت من أكبر الكبائر –إن قصرت عن الكفر– وكانت أحبَّ إلى إبليس من كبار الذنوب، كما قال بعض السلف: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنّ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وقال إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله. فلما رأيت ذلك بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون، ولا يتوبون؛ لأنّهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعا !

ومعلوم أنّ المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على النوع. وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة. والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدَّهم عنه، والمذنب ليس كذلك. والمبتاع قادح في أوصاف الربّ وكماله، والمذنب ليس كذلك. والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول، والعاصي ليس كذلك. والمبتدع يقطع على الناس طريقَ الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه. [٥٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٥٣] الداء والدواء ( من ص٣٢٩ إلى ٣٣٢)

# الدرس الرابع والخمسون

## (مفسدة القتل وتفاوت درجاته)

وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه، واستحقاقِ مَن قَتلَه السعيَ في إبقائه ونصيحته. ولهذا كان أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًّا، أو قتله نبيٌّ. ويليه من قتل إمامًا، أو عالمًا يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلى الله، وينصحهم في دينهم.

وقد جعل الله –سبحانه– جزاءَ قتل النفس المؤمنة عمدًا الخلودَ في النار، وغضب الجبار، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له. هذا موجَب قتل المؤمن عمدًا، ما لم يمنع منه مانع. ولا خلاف أنّ الإسلام الواقع بعد القتل طوعًا واختيارًا مانع من نفوذ ذلك الجزاء.

وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟ فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن أحمد.

والتحقيق في هذه المسألة أنّ القتل يتعلق به ثلاث حقوق: حقّ لله، وحقّ للمقتول، وحقّ للولي. فإذا سلّم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلى الولي ندمًا على ما فعل، وخوفًا من الله، وتوبةً نصوحًا، سقط حقُّ الله بالتوبة، وحقُّ الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حقّ المقتول يعوّضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يذهب حقّ هذا، ولا تبطل توبة هذا.

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)} [المائدة: ٣٢].

وذكر البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: "من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسَه فيها: سفكُ الدم الحرام بغير حِلّه".

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**».

وفيهما أيضًا عنه -صلى الله عليه وسلم-: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**».

وفي صحيح البخاري عنه -صلى الله عليه وسلم-: «**من قتل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**».

هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه، فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟

وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرّةٍ حبسَتْها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي - صلى الله عليه وسلم - في النار، والهرّةُ تخدِشها في وجهها وصدرها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم؟

وفي بعض السنن عنه -صلى الله عليه وسلم-: «**لَزوالُ الدنيا أهونُ على الله مِن قتلِ مؤمنٍ بغير حقّ**».[٥٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٤] الداء والدواء ( ص ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥)

# الدرس الخامس والخمسون

# (أضرار النظر الحرام)

فمن أطلق بصره أورده موارد الهلَكات.

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «**لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإنّما لك الأولى، وليست لك الآخِرة**».

وفي المسند عنه –صلى الله عليه وسلم–: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضّ بصره عن محاسن امرأةٍ لله أورث الله قلبه حلاوةَ إلى يوم يلقاه**». هذا معنى الحديث.

وقال: «**غُضّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**».

وقال: «**إيّاكم والجلوس على الطرقات**». قالوا: يا رسول الله، مجالسُنا ما لنا منها بد. قال: «**فإن كنتم لابدّ فاعلين، فأعطوا الطريق حقه لا**». قالوا: وما حقّه؟ قال: «**غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام**».

والنظر أصل عامّة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإنّ النظرة تولّد خطرةً، ثم تولّد الخطرة فكرةً، ثم تولّد الفكرة شهوةً، ثم تولّد الشهوة إرادةً، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً، فيقع الفعل، ولا بدّ، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غضّ البصر أيسرُ من الصبر على ألم ما بعده.

قال الشاعر:

كـلُّ الحوادث مبـداهـا من النظرِ ومعظمُ النار من مسـتصـغَر الشـررِ

كم نظرةٍ بلغت من قلب صـاحبها كمبلغ السـهم بين القوس والوتَرِ

والعبـد مـا دام ذا طَرْفٍ يقـلّبـه في أعين العِين موقوفٌ على الخطرِ

يسـرّ مقلتَـه مـا ضـرَّ مهجتَـه لا مرحبًـا بسـرورٍ عـاد بالضـررِ

**ومن آفات النظر**: أنّه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه. وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك على بعضه وكم ممن أرسل لحظاته، فما أقلعت إلا وهو يتشحّط بينهن قتيلًا، كما قيل:

يا ناظـرًا مـا أقـلـعـتْ لحـظـاتُـه حـتّى تشـحّـط بـيـنـهـن قـتـيـلُ

وأعجب من ذلك أنّ النظرة تجرح القلبَ، فيتبعُها جرحًا على جرح، ثم لا يمنعه ألمُ الجراحة من استدعاء تكرارها. وَلِي أيضًا في هذا المعنى:

مـا زلـتَ تُـتـبِـعُ نـظـرةً في نـظـرةٍ في إثـر كـلِّ مـلـيـحـةٍ ومـلـيـحِ

وتظنّ ذاك دواءَ جرحـك وَهْو في التـ ـحـقـيـق تجـريـحٌ عـلـى تجـريـحِ

فـذبحـتَ طرفَـك باللّحـاظِ وبالبكـا فـالـقـلـبُ مـنـك ذبـيـحٌ ايُّ ذبـيـحِ

وقد قيل: حبسُ اللحَظاتِ أيسرُ من دوام الحسَرات. [٥٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٥] الداء والدواء ( من ص ٣٤٨ إلى ٣٥٣)

# الدرس السادس والخمسون

## (من أعظم المفاسد مفسدة الزنا)

ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقّي ما يُوقع أعظمَ العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمّه، وفي ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكبر. ولهذا قرنها الله – سبحانه– بها في كتابه، ورسوله بها في سنته، كما تقدّم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى.

وقد أكد –سبحانه– حرمته بقوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ} [الفرقان: ٦٨ – ٧٠]، فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاءَ ذلك الخلودَ في العذاب المضاعف مالم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

وقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)} [الإسراء: ٣٢]، فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقرّ فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: "رأيتُ في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع

القرود عليهما، فرجموهما حتى ماتا". ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلًا، فإنّه سبيل هلكةٍ وبوارٍ وافتقار في الدنيا، وسبيلُ عذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرة.

وأمر تعالى نبيّه –صلى الله عليه وسلم– أن يأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يُعلِمَهم أنّه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)} [غافر: ١٩]. ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمرَ بغضّه مقدمًا على حفظ الفرج، فإنّ الحوادث مبداها من النظر، كما أنّ معظم النار من مستصغَر الشرر. فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينَه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدوّ، فيجوس خلال الديار، ويتبّر ما عَلا تتبيرًا![٥٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٥٦] الداء والدواء ( من ص ٣٤٦ إلى ٣٤٨)

# الدرس السابع والخمسون

## (من أضرار الزنا ومفسداته)

ومفسدة الزنا مناقِضة لصلاح العالم، فإنّ المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس. وإن حملتْ من الزنى، فإنْ قتلتْ ولدها جمعت بين الزنى والقتل، وإن حمّلته الزوجَ أدخلَتْ على أهله وأهلها أجنبيًّا ليس منهم فورِثَهم وليس منهم، ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم، وليس منهم؛ إلى غير ذلك من مفاسد زناها. وأما زنى الرجل فإنّه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضَها للتلف والفساد. وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ، والنار في الآخرة. فكم في الزنى من استحلال محرّمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

**ومن خاصيته**: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سوادَ الوجه وثوبَ المقت بين الناس.

**ومن خاصيته أيضًا**: أنّه يشتّت القلب، ويُمرِضه إن لم يُمِتْه. ويجلب الهمّ والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملَك، ويقرّب منه الشيطان.

فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته. ولهذا شُرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها. ولو بلغ العبدَ أنّ امرأته أو حرمته قُتِلتْ كان أسهل عليه من أن يبلغه أنّها زنت.

وقال سعد بن عبادة: لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيف غيرَ مُصْفَح. فبلغ ذلك رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: «**تعجبون من غيرة سعد؟ واللهِ لأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ منّي. ومن أجْلِ غيرة الله حرّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن**». متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضًا عنه –صلى الله عليه وسلم–: "إن الله يغار، وإنّ المؤمن يغار، وغيرةُ الله أن يأتي العبدُ ما حرَّم عليه".

وفي الصحيحين عنه –صلى الله عليه وسلم–: «**لا أحدَ أغيَرُ من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن. ولا أحدَ أحب إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسلَ مبشِّرين ومنذرين. ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه**».

وفي الصحيحين في خطبته –صلى الله عليه وسلم– في صلاة الكسوف أنّه قال: «**يا أمّة محمَّد، والله إنه لا أحدَ أغيرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته. يا أمة محمَّد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**». ثمّ رفع يديه، وقال:«**اللهم هل بلّغت؟**».

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيبَ صلاة الكسوف سرّ بديع لمن تأمّله.

وظهورُ الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنّه قال: لأحدّثنّكم حديثًا لا يحدّثكموه أحد بعدي سمعتُه من النبي –صلى الله عليه وسلم–. سمعت النبي –

صلى الله عليه وسلم- يقول: «**من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهل، ويُشرَب الخمرُ، ويَظهر الزنا، ويقلّ الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأةً القيّم الواحد**».

وقد جرت سنّة الله -سبحانه- في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله -سبحانه-، ويشتدّ غضبه، فلا بدّ أن يؤثّر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذِن الله بإهلاكها.[٥٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٧] الداء والدواء ( من ص ٣٧٧ إلى ٣٨٠)

# الدرس الثامن والخمسون

# (مفاسد اللواط وعِظم عقوبته)

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات. وقد اختلف الناس: هل هو أغلظ عقوبةً من الزنى، أو الزنى أغلظ عقوبةً منه، أو عقوبتهما سواء؟ على ثلاثة أقوال:

فذهب أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن عبد الله بن معمر، والزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد في أصحّ الروايتين عنه، والشافعي في أحد قوليه = إلى أنّ عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل على كلّ حال محصنًا كان أو غير محصن.

قال أصحاب هذا القول–وهم جمهور الأمة، وحكاه غير واحد إجماعًا للصحابة–: ليس في المعاصي مفسدة أعظم من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل، كما سنبيّنه إن شاء الله.

قالوا: ولم يبتلِ الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبةً لم يعاقب بها أمةً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة

من السماءة فنكّلَ بهم نكالًا لم ينكّله بأمّة سواهم. وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُمِلت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشيةَ نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم؛ وتعجّ الأرض إلى ربّها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها. وقتل المفعول به خير له من وطئه، فإنّه إذا وطئه الرجل قتله قتلًا لا ترجى الحياة معه؛ بخلاف قتله فإنّه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته.[٥٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٨] الداء والدواء ( ص ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦)

# الدرس التاسع والخمسون

# (عقوبة قوم لوط)

وتأمَّلْ خبثَ اللوطية وفرط تمرّدهم على الله، حيث جاؤوا نبيهم لوطًا لما سمعوا بأنّه قد طَرَقَه أضيافٌ هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطية إليه يهرولون. فلما رآهم قال لهم: {يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [هود: ٧٨]، ففدى أضيافه ببناته، يزوّجهم بهنّ، خوفًا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: {يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨)} [هود: ٧٨]، فردّوا عليه، ولكن ردَّ جبّارٍ عنيدٍ: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩)} [هود: ٧٩]. فنفث نبيُّ الله نفثةَ مصدور، وخرجَتْ من قلب مكروب عميد، فقال: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)} [هود: ٨٠]. فنفّس له رُسُل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنّهم ليسوا ممّن يُوصَل إليهم ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم، وهوِّنْ عليك، فقالوا: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ} [هود: ٨١]، وبشّروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ} [هود: ٨١]. فاستبطأ نبي الله موعدَ هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) }

فوالله ما كان بين هلاك أعداء الله ونجاة نبيّه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتُلِعت من أصولها، ورُفعت نحو السماء، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير. فبرز المرسوم الذي لا يُردّ من عند الربّ الجليل إلى عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم، كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عزّ من قائل: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [هود: ٨٢].

فجعلهم آيةً للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالًا وسلَفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)} [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

أخذهم على غِرّةٍ وهم نائمون، وجاءهم بأسُه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فانقلبت تلك اللذات آلامًا فأصبحوا بها يعذَّبون:

مـآربُ كـانـت في الحيـاة لأهلهـا ... عِـذابًا فصـــارت في الممـات عَـذابا

ذهبت اللذّات، وأعقبت الحسرات. وانقضت الشهوة، وأورثت الشقوة. تمتّعوا قليلًا، وعُذِّبوا طويلًا. رتَعوا مرتعًا وخيمًا، فأعقبهم عذابًا أليمًا. أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذَّبين. وأرقدتهم تلك الغفلة، فما استيقظوا إلا وهم في منازل الهالكين. فندموا واللهِ أشدَّ الندامة حين لا ينفع الندم. وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم.

فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم، وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم، وهم على وجوههم يسحبون: {ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)} [الزمر: ٢٤]، {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)} [الطور: ١٦].

ولقد قرّب الله –سبحانه– مسافة العذاب بين هذه الأمة وبيّن إخوانهم في العمل، فقال مخوِّفًا لهم أن يقع الوعيد: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)} [هود: ٨٣].[٥٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٥٩] الداء والدواء ( من ص ٤٠٢ إلى ٤٠٤)

# الدرس الستون

# (ضرورة حفظ اللسان)

وأما اللفظات، فحفظها بأن لا يُخرِجَ لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلّم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه.

فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإنْ لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل يفوته بها كلمة هي أربح منها، فلا يضيّعها بهذه.

وإذا أردت أن تستدلّ على ما في القلب، فاستدِلَّ عليه بحركة اللسان، فإنّه يُطلِعُ ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيي بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها. فانظر الرجل حين يتكلّم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه: حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك. ويبين لك طعم قلبه اغترافُ لسانه.

أي كما تطعم بلسانك طعمَ ما في القدر من الطعام، فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**».

وسئل –صلى الله عليه وسلم– عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ النارَ، فقال: «**الفم والفرج**». قال الترمذي حديث صحيح.

وقد سأل معاذ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– عن العمل الذي يُدخله الجنّة ويباعده من النار، فأخبره برأسه، وعموده، وذروة سنامه؛ ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك؟**» قال: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**كُفَّ عليك هذا**». فقال: وإنّا لمؤاخَذون بما نتكلّم به؟ فقال: «**ثكلتك أمّك يا معاذًا وهل يَكُبّ الناسَ في النار على وجوههم –أو على مناخرهم– إلا حصائدُ ألسنتهم؟**» قال الترمذي: حديث صحيح.

ومن العجب أنّ الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرّم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجلَ يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلّم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يزِلّ بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب!

وكم ترى من رجل متورعٍ عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول!.[٦٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦٠] الداء والدواء ( من ص ٣٦٣ إلى ٣٦٧)

# الدرس الحادي والستون

## (تتمة ضرورة حفظ اللسان)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: **«إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم»**.

وعند مسلم: **«إنّ العبد لَيتكلّم بالكلمة، ما يتبيّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب»**.

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي – صلى الله عليه وسلم–: **«إنّ أحدكم ليَتكلّم بالكلمة من رضوان الله، ما يظنّ أن تبلغ ما بلغتْ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإنّ أحدكم لَيتكلّم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»**.

فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديثُ بلال بن الحارث!

وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس قال: توفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشِرْ بالجنة، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أوَ لا تدري فلعلّه تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه**».

قال: حديث حسن.

وفي لفظ: أنّ غلامًا استشهد يوم أحد، فوُجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمّه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بنيّ، لك الجنّة. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**وما يدريك، لعلّه كان يتكلّم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرّه**».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيقل خيرًا أو لِيَصْمُتْ**».

وفي لفظ لمسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمرًا فليتكلّمْ بخير أو لِيسكتْ**».

وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه -صلى الله عليه وسلم-: «**من حسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه**».

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإِسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل: آمنتُ بالله، ثمّ استقِمْ**». قلت: يا رسول الله ما أخوَفُ ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**هذا**». والحديث صحيح.

وعن أم حبيبة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن المنكر، أو ذكرُ الله**». قال الترمذي: حديث حسن.

وفي حديث آخر: «**إذا أصبح العبد فإنّ الأعضاء كلها تكفِّر اللسانَ**»، تقول: اتّقِ الله فينا، وإنّما نحن بك. فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا. [٦١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦١] الداء والدواء ( من ص ٣٦٧ إلى ٣٧٢)

# الدرس الثاني والستون

## (تورع السلف في ألفاظهم وذكر بعض آفات اللسان)

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسَه في قوله: يوم حارّ، ويوم بارد.

ولقد رُئي بعضُ الأكابر من أهل العلم في النوم، فسئل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمة قلتُها.

قلتُ: ما أحوج الناسَ إلى غيث! فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي.

وقال بعض الصحابة لخادمه يومًا: هاتِ السفرة نعبَثْ بها. ثم قال: أستغفر الله، ما أتكلّم بكلمة إلا وأنا أخطِمُها وأزُمُّها، إلا هذه الكلمة خرجت منّي بغير خطام ولا زمام. أو كما قال.

وأيسرُ حركات الجوارح حركةُ اللسان، وهي أضرُّها على العبد.

واختلف السلف والخلف هل يُكتَبُ جميع ما يلفظ به العبد، أو الخير والشرّ فقط ؟ على قولين، أظهرهما الأول.

وقال بعض السلف: كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه.

وكان الصدّيق –رضي الله عنه– يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارِدَ.

والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرتَ أسيره. واللهُ عند لسان كلّ قائل: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)} [ق: ١٨].

وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت. وقد يكون كلّ منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها. فالساكت عن الحقّ شيطان أخرس عاصٍ لله مُراءٍ مداهنٌ إذا لم يخف على نفسه، والمتكلّم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط –وهم أهل الصراط المستقيم– كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعُه في الآخرة. فلا يرى أحدهم أنّه يتكلّم بكلمة تذهب عليه ضائعةً بلا منفعة، فضلًا عن أن تضرّه في آخرته.

وإنّ العبد ليأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلَّها؛ ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.[٦٢]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٦٢] الداء والدواء ( من ص ٣٧٣ إلى ٣٧٥)

# الدرس الثالث والستون

## (من أسباب سوء الخاتمة)

"واعلم أنّ لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل. وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملكَ قلبَه، وسبق عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة. فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبيّن له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرّر عليه الداعي وأعاد!".

قال: "ويروى أنّ بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي! فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك. ثم أصابته غشية، فلمّا أفاق قال: الناصر مولاي. وكان هذا دأبه، كلمّا قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي. ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنّما يعرفك بسيفك، والقتل، القتل. ثم مات".

قال عبد الحق: "وقيل لآخر ممن أعرفه: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا".

"ولقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تِبْنةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنّما أبكي من خوف الخاتمة ".

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة بالحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنّه لما احتُضِر جعل يُغمى عليه، ثم يفيق ويقرأ: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)} [الأنعام: ١١٠]. فمِن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابًا بينهم وبيّن الخاتمة بالحسنى.[٦٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٦٣] الداء والدواء ( ص ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩١)

# الدرس الرابع والستون

# (منافع وفوائد غض البصر)

وفي غضّ البصر عدّة منافع، وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع.

**أحدها:** أنّه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربّه تبارك وتعالى. وما سَعِدَ من سَعِدَ في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

**الثانية:** أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعلّ فيه هلاكه إلى قلبه.

**الثالثة:** أنّه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية على الله، فإنّ إطلاق البصر يفرّق القلب، ويشتّته، ويُبعده من الله. وليس على العبد شيء أضرّ من إطلاق البصر، فإنّه يوقع الوحشة بين العبد وبيّن ربه.

**الرابعة:** أنه يقوّي القلب ويفرحه، كما أنّ إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

**الخامسة:** أنه يُكسب القلب نورًا، كما أنّ إطلاقه يكسبه ظلمة.

ولهذا ذكر -سبحانه- آية النور عقيب الأمم بغضّ البصر فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ} [النور: ٣٠]. ثم قال إثر ذلك: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} [النور: ٣٥] أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كلّ ناحية، كما أنّه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشرّ عليه من كل مكان. فما شئتَ من بدع وضلالة، واتّباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة! فإنّ ذلك إنّما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فُقِد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلمات.

**السادسة:** أنّه يُورثه فراسةً صادقةً يميّز بها بين المحِقّ والمبطل والصادق والكاذب.

وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهرَه باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة؛ وغضّ بصرَه عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، واغتذى بالحلال لم تخطئ فراسته. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة. [٦٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٦٤] الداء والدواء ( من ص ٤١٥ إلى ٤١٧)

# الدرس الخامس والستون

## (تتمة منافع وفوائد غض البصر)

**السابعة:** أنّه يورث القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان من ظلّه.

وضدّ هذا تجد في المتّبع لهواه من ذلّ النفس ووضاعتها ومهانتها وخِسّتها وحقارتها ما جعله الله -سبحانه- فيمن عصاه، كما قال الحسن: إنّهم وإن طقطقت بهم البغال، وهَمْلَجَتْ بهم البراذين، إنّ ذُلّ المعصية في رقابهم. أبى الله إلا أن يُذِلّ من عصاه.

وقد جعل الله -سبحانه- العزّ قرين طاعته، والذلّ قرين معصيته، فقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨] وقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)} [آل عمران: ١٣٩]. والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن.

وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]. أي: من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكرِه من الكلم الطيب والعمل الصالح.

وفي دعاء القنوت: "إنّه لا يذِلّ من واليتَ، ولا يعِزّ من عاديتَ". ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العزّ بحسب طاعته. ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذلّ بحسب معصيته.

**الثامنة:** أنه يسدّ على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنّه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثّل له حسنَ صورة المنظور إليه، ويزيّنها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب. ثم يَعِدُه، ويمنّيه، ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصّل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب. فمن ذلك اللهيب تلك الأنفاسُ التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفَراتُ والحُرُقاتُ. فإنّ القلب قد أحاطت به النيران من كلّ جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنّور.

ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرّمة أن جُعِل لهم في البرزخ تنّور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيّه.-صلى الله عليه وسلم- في المنام في الحديث المتفق على صحته.

**التاسعة:** أنّه يُفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاقُ البصر يشتّته عن ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أموره، ويقع في اتّباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه. قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)} [الكهف: ٢٨]. وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

**العاشرة:** أنّ بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح، فإذا

خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محلّ النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والإنس به والسرور بقربه فيه، وإنّما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غضّ البصر تُطْلِعك على ما وراءها.[٦٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦٥] الداء والدواء ( من ص ٤١٩ إلى ٤٢٢)

# الدرس السادس والستون

## (عقوبة الإعراض عن محبة الله وأنواع المحبة)

فمحبة الصور تفوّت محبةَ ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوّت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده. فليختر إحدى المحبَّتَين، فإنهما لا تجتمعان في القلب ولا ترتفعان منه. بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذّبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة. فإمّا أن يعذّبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصُّلبان، أو بمحبة النيران، أو محبة المرْدان، أو محبة النسوان، أو محبة الأثمان، أو محبة العُشراء والخلّان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان، فالإنسان عبد محبوبه كائنًا ما كان! كما قيل:

أنت القتيل بكلّ من أحببتَه فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهُه مالكَه ومولاه، كان إلهه هواه. قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)} [الجاثية: ٢٣].

وههنا أربعة أنواع من المحبّة يجب التفريق بينها، وإنّما ضلّ من ضلّ بعدم التمييز بينها:

**أحدها:** محبة الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذابه والفوز بثوابه، فإنّ المشركين وعبّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبّون الله.

**الثاني:** محبة ما يحبّه الله. وهذه هي التي تُدخله في الإسلام، وتُخرجه من الكفر، وأحبُّ الناس إلى الله أقوَمُهم بهذه المحبة وأشدّهم فيها.

**الثالث:** الحبّ لله وفيه. وهي من لوازم محبة ما يحبّ، ولا يستقيم محبة ما يحب إلا بالحبّ فيه وله.

**الرابع:** المحبة مع الله. وهي المحبة الشركية، وكلّ من أحبّ شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

**وبقي قسم خامس:** ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد. فتلك لا تُذَمّ إلا إذا ألهَتْ عن ذكر الله وشغلتْ عن محبته.

كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩] وقال: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [النور: ٣٧].[٦٦]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[٦٦] الداء والدواء (ص ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٤٣، ٤٤٤)

# الدرس السابع والستون

## (أصل الأعمال الدينية محبة الله ورسوله)

وإذا كان الحبّ أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أنّ أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله.

وكلّ إرادة تمنع كمال الحبّ لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهةِ تمنع كمال التصديق؛ فهي معارِضة لأصل الإيمان أو مُضْعِفة له. فإنْ قويت حتى عارضت أصلَ الحبّ والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبرَ، وإنْ لم تعارضه قدحتْ في كماله، وأثّرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب. وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب.

فلا تصحّ الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)} [الشعراء: ٧٥ - ٧٧]. فلم تصحّ لخليل الله الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنّه لا وَلاءَ إلّا ببراء، أو، لا وَلاءَ لله إلّا بالبراءة من كل معبود سواه. قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)} [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض. وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات. وعليها أُسِّست الملّة، ونُصِبت القبلة، وجُرّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقّ الله على جميع العباد. وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذريّة في هذه الدار، والمنجيةُ من عذاب القبر وعذاب النار. وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنةَ إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه.

وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام. وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد. وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان. وهي العمود الحامل للفرض والسنّة، **«ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنّة»**.

وروح هذه الكلمة وسرّها: إفراد الربّ -جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جدّه، ولا إله غيره- بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة. فلا يُحَبَّ سواه، وكلّ ما يُحَبّ غيره وإنّما يحَبّ تبعًا لمحبته وكونِه وسيلةً إلى زيادة محبته. ولا يُخاف سواه ولا يُرجى سواه، ولا يُتوكَّل إلا عليه، ولا يُرغَب إلا إليه، ولا يُرهَب إلا منه، ولا يُحلَف إلا باسمه، ولا ينذَر إلا له، ولا يتاب

إلا إليه، ولا يطاع إلا أمرُه، ولا يتحسّب إلا به، ولا يستغاث في الشدائد إلا به، ولا يلتجأ إلا إليه، ولا يُسجَد إلا له، ولا يُذبَح إلا له وباسمه. ويجتمع ذلك كلّه في حرف واحد، وهو أن لا يَعُبدَ إلا إيّاه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.[٦٧]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦٧] الداء والدواء ( من ص ٤٥٥ إلى ٤٥٧)

# الدرس الثامن والستون

## (أنفع المحبة على الإطلاق محبة الله)

اعلم أنّ أنفع المحبة على الإطلاق وأوجَبها وأعلاها وأجلّها محبةُ مَن جُبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تألّهه. وبها قامت الأرضَ والسماوات، وعليها فُطِرت المخلوقات. وهي سرّ شهادة أن لا إله إلا الله، فإنّ "الإله" هو الذي تألَهه القلوبُ بالمحبة والإجلال والتعظيم والذلّ والخضوع، وتعبدُه. والعبادة لا تصحّ إلا له وحده، و"العبادة" هي كمال الحبّ مع كمال الخضوع والذلّ. والشركُ في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله. والله تعالى حيث لذاته من جميع الوجوه، وما سواه وإنّما يُحَبّ تبعًا لمحبته.

وقد دلّ على وجوب محبته -سبحانه- جميعُ كتبه المنزلة، ودعوةُ جميع رسله، وفطرتُه التي فَطَر عبادَه عليها، وما ركَّب فيهم من العقول، وما أسبَغَ عليهم من النعَم- فإنّ القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعَمَ عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كلُّ الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)} [النحل: ٥٣] وما تعرّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العُلا، وما دلّت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال والإجمال، والربّ تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنّه جميل يحبّ الجمال، بل الجمال كلّه له، والإجمال كلّه منه. فلا يستحقّ أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه سواه. قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [المائدة: ٥٤ – ٥٦].

والولاية أصلها الحبّ، فلا موالاة إلا بحبّ. كما أنّ العداوة أصلها البغض. واللهُ وليّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم. فالله يوالي عبدَه بحسب محبته له.

ولهذا أنكر –سبحانه– على من اتخذ من دونه أولياءَ، بخلاف من وإلى أولياءه، فإنّه لم يتخذهم من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من سوّى بينه وبيّن غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبّهم كحبّ الله، والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله. وأخبر عمّن سوّى بينه وبيّن الأنداد في الحبّ أنّهم يقولون في النار لمعبوديهم: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)} [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وبهذا التوحيد في الحبّ أرسل الله –سبحانه– جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوةُ الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلق السماوات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنّة لأهله، والنار للمشركين به فيه.[٦٨]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦٨] الداء والدواء ( من ص ٥٣٢ إلى ٥٣٤)

# الدرس التاسع والستون

## (من حقق شهادة أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار)

ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة. ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣)} [المعارج: ٣٣]، فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه. فإنّ من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمةً إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعةً، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة

الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه -صلى الله عليه وسلم-: **«إنّي لأعلم كلمةً لا يقولها عبدٌ عند الموت إلا وجدتْ روحُه لها رَوحًا»**.

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أنّ حياة البدن بوجود الروح فيه. وكما أنّ من مات على هذه الكلمة فهو في الجنّة يتقلّب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلّب في جنة المأوى، وعيشه

أطيب عيش. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)} [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنّةُ المعرفة والمحبة والأنسِ بالله والشوقِ إلى لقائه والفرح والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار. فمن كانت هذه الجنّة مأواه ها هنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد. ومن حُرِم هذه الجنّة، فهو لتلك أشدّ حرمانًا. والأبرار في النعيم، وإن اشتدّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا. والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا.

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧].

وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥].

فأيّ نعيمٍ أطيبُ من شرح الصدر؟ وأيّ عذابٍ أمرُّ من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)} [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرّهم قلبًا. وهذه جنة عاجلة قبل الجنّة الآجلة.

قال النبي.-صلى الله عليه وسلم-: «**إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا**». قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: «**حِلَق الذكر**».

ومن هذا: قوله.-صلى الله عليه وسلم-: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنّة**». [٦٩]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٦٩] الداء والدواء ( من ص ٤٥٧ إلى ٤٦٠)

# الدرس السبعون

## (أعظم ما ينفع العبد هو إقباله على الله)

ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعّمه بحبه، وإيثاره لمرضاته؛ بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك. فعدمه آلَمُ شيء له، وأشدّه عذابًا عليه. وإنما يغيّب الروحَ عن شهود هذا الألم والعذاب اشتغالُها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوت بفراق أحبِّ شيء إليها وأنفعه لها.

وهذا بمنزلة السكران، المستغرقِ في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوت وحسرته، حتى إذا صحا وكُشِف عنه غطاءُ السكر، وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ.

وهكذا الحال سواءٌ عند كشف الغطاء، ومعاينة طلائع الآخرة، والإشراف على مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلى الله؛ بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشدّ بأضعاف مضاعفة. فإنّ المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنّه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له؛ فكيف بمن مصيبته بما لا عوضَ عنه، ولا بدلَ منه، ولا نسبة بينه وبيّن الدنيا جميعها؟ فلو قضى الله –سبحانه– بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وإنّ الموت لَيعود أعظمَ أمنيته وأكبرَ حسراته. هذا لو كان الألم على مجرّد الفوات، فكيف

وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يُقدَر قدرُه؟ فتبارك من حمّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي! فأعرض الآن على نفسك أعظمَ محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحتَ وقد أُخِذ منك، وحيل بينك وبينه، أحوجَ ما كنتَ إليه، كيف يكون حالك؟ هذا، ومنه كلّ عوض، فكيف بمن لا عوض عنه؟

من كلّ شيء إذا ضيّعتَه عوض  وما من الله إنْ ضيّعتَه عوضُ

وفي أثر إلهي: "ابنَ آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعَبْ، وتكفّلت برزقك فلا تتعَبْ، ابنَ آدم اطلبْني تجدْني، فإن وجدتَني وجدتَ كلّ شيء، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء. وأنا أحب إليك من كلّ شيء". [٧٠]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧٠] الداء والدواء ( من ص ٤٦١ إلى ٤٦٣)

# الدرس الحادي والسبعون

## (مفاسد العشق العاجلة والآجلة)

ونختم الجواب بفصل يتعلّق بعشق الصور، وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر، فإنّه يفسد القلب بالذات. وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد نفس التوحيد كما تقدّم، وكما سنقرّره أيضًا إن شاء الله.

والله -سبحانه- إنّما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهما اللوطية والنساء. فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودَتْه وكادَتْه به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفّته وتقواه، مع أنّ الذي ابتلي به أمرٌ لا يصبر عليه إلا من صبّره الله عليه. فإنّ موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه

ومع هذه الدواعي كلّها، فآثر مرضاةَ الله وخوفَه، وحمله حبُّه لله على أن اختار السجن على الزنى، فقال: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي} [يوسف: ٣٣]، وعلم أنّه لا يطيق صرفَ ذلك عن نفسه، وأنّ ربّه تعالى إنْ لم يعصمْه ويصرِفْه عنه صبأ إليهنّ بطبعه، وكان من الجاهلين. وهذا من كمال معرفته بربّه وبنفسه.

والطائفة الثانية الذين حكى عنهم العشق هم اللوطية، كما قال تعالى: {وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)} [الحجر: ٦٧ - ٧٢]، فهذه عشقت.

فحكاه -سبحانه- عن طائفتين عشِقَ كلٌّ منهما ما حُرِّم عليه من الصور، ولم يبال بما في عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطبّاءَ دواؤه، وعزّ عليهم شفاؤه. وهو -لَعمرُ الله- الداء العضال، والسم القتّال، الذي ما عَلِقَ بقلب إلا وعزّ على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

فكم للعشق من قتيل من الجانبين! وكم قد أزال من نعمةٍ، وأفقر من غنًى، وأسقط من مرتبة، وشتّت من شمل! وكم أفسد من أهل للرجل وولد! فإنّ المرأة إذا رأت بعلها عاشقًا لغيرها اتخذت هي معشوقًا لنفسها، فيصير الرجل متردّدًا بين خراب بيته بالطلاق وبيّن القيادة. فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

فعلى العاقل أن لا يُحكِم على نفسه عشقَ الصور، لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها.

فمن فعل ذلك فهو المفرِّط بنفسه المغرِّر بها، فإذا هلكتْ فهو الذي أهلكها.

فلولا تكرارُه النظرَ إلى وجه معشوقه وطمعُه في وصاله لم يتمكّن عشقه من قلبه.[٧١]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧١] الداء والدواء ( ص ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٧، ٤٨٨، ٥٠٦)

# الدرس الثاني والسبعون

## (دواء هذا الداء القتّال– العشق)

ودواء هذا الداء القتال: أن يعرف ما ابتُلي به من الداء المضادّ للتوحيد أولًا، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرّع إلى الله –سبحانه– في صرف ذلك عنه وأن يراجع بقلبه إليه.

وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله. وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)} [يوسف: ٢٤]. فأخبر –سبحانه– أنّه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه. فإنّ القلب إذا خلَص وأخلص عملَه لله لم يتمكّن منه عشق الصور، فإنّه إنّما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا وليعلم العاقل أنّ العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها. فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحةً ومفسدة وجب عليه أمران: أمر علميّ، وأمر عمليّ. فالعلميّ طلبُ معرفة الراجح من طرفَي المصلحة والمفسدة، فإذا تبيّن له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدَّر فيه من المصلحة أنّ آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشّاق الصور من النار في يابس الحطب.

وسبب ذلك أنّ القلب كلّما قَرُبَ من العشق وقويَ اتصالُه به بَعُدَ من الله، فأبعد القلوب من الله قلوب عشّاق الصور. وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية، فإنّ الشيطان يتولّاه. ومن تولّاه عدوُّه واستولى عليه لم يألُه وبالًا، ولم يدَعْ أذىً يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله.

فما الظنّ بقلب تمكّن منه عدوُّه وأحرَصُ الخلقِ على غيّه وفسادِه، وبعُد منه وليُّه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

وقد رُفع إلى ابن عباس –وهو بعرفة– شابٌّ قد انتحل حتى عاد عظما بلا لحم فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق. فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامّةَ يومه.

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه همّ وشغلُ قلبٍ وسقم، وآخره عطَب وقتل، إن لم يتداركه عناية من الله.

كما قيل:

وعِشْ خــاليًــا فــالحــبُّ أولُــه عَنــا وأوســـطــه ســـقــم، وآخــره قتــلُ .[72]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

---

[72] الداء والدواء ( ص ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٧،٤٩٤، ٤٩٨)

# الدرس الثالث والسبعون

## (أعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الرب وسماع كلامه منه)

**فأعظمُ نعيم الآخرة ولذّاتها**: النظرُ إلى وجه الربّ جلّ جلاله، وسماعُ كلامه منه، والقربُ منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**».

وفي حديث آخر: «**إنّه إذا تجلّى لهم ورأوه نسُوا ما هم فيه من النعيم**».

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمّار بن ياسر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في دعائه: «**وأسألك لذّةَ النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**».

وفي كتاب السنّة لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعًا: «**كأنّ الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن، فكأنّهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

وإذا عُرِف هذا، فأعظمُ الأسباب التي تُحصِّل هذه اللذّةَ هو أعظمُ لذّات الدنيا على الإطلاق، وهو لذّةُ معرفته -سبحانه- ولذّةُ محبته، فإن ذلك هو جنّة الدنيا ونعيمها العالي؛ ونسبةُ لذّاتها الفانية إليه كتَفْلةٍ في بحرٍ، فإنّ الروح والقلب والبدن إنّما خلق لذلك. فأطيبُ ما في الدنيا معرفتُه ومحبّتُه، وأنشد ما في الجنّة رؤيتُه ومشاهدتُه. فمحبّتُه ومعرفتُه قرّة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. بل لذّاتُ

الدنيا القاطعةُ عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضَّنْك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبّين تمرّ به أوقات، فيقول: إن كان أهل الجنّة في مثل هذا، إنّهم لفي عيش طيّب !

وكان غيره يقول: لو علم الملوكُ ما نحن فيه لَجَالَدونا عليه بالسيوف.[٧٣]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧٣] الداء والدواء ( من ص ٥٤٢ إلى ٥٤٤)

# الدرس الرابع والسبعون

# (أنواع لذات الدنيا)

**فأعظمها وأكملها**: ما أوصل إلى لذة الآخرة. ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتمّ ثواب. ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجهَ الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوّه، فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

**النوع الثاني**: لذة تمنع لذة الآخرة، وتُعقِب آلامًا أعظمَ منها، كلذّة الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودةَ بينهم في الحياة الدنيا، يحبّونهم كحبّ الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقُوا ربهم: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)} [الأنعام:١٢٨ - ١٢٩]، ولذّةِ أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلوّ بغير الحق.

وهذه اللذّات في الحقيقة إنّما هي استدراج من الله لهم، ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكملَ اللذّات، بمنزلة من قدّم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلى هلاكه.

قال تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)} [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلّما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمةً. {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)} [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذّات: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال في حقّهم: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)} [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذّات تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مـآربُ كـانـت في الحيـاة لأهلهـا ... عِـذابًا فصـــارت في المعـاد عَـذابا

**النوع الثالث**: لذة لا تعقِبُ لذةً في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعَتْ كمالَها. وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة. فهذه زمانها يسير، ليس لتمتُّعُ النفس بها قدر، ولابدّ أن تشغل عمّا هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: «**كلّ لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسه، وملاعبتَه امرأته؛ فإنهنّ من الحقّ**».

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حقّ، وما لم يعن عليها فهو باطل.[٧٤]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧٤] الداء والدواء ( من ص ٥٤٦ إلى ص ٥٤٨)

# الدرس الخامس والسبعون

## (ثواب محبة رسول الله–صلى الله عليه وسلم– ومحبة كلامه)

حبّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وإنما نعني المحبة الخاصّة، وهي التي تشغل قلب المحبّ وفكره وذكره لمحبوبه، وإلا فكلّ مسلم في قلبه محبةٌ لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها. والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

فهذه المحبة التي تلطّف الروح، وتخفّف أثقال التكاليف، وتسخّي البخيل، وتشجّع الجبان، وتصفّي الذهن، وتروّض النفس، وتطيّب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرّمة. وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرةُ صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم في مضمَر القلبِ والحشا  سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السرائرُ

وهذه المحبة التي تنوِّر الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبة كلام الله، فإنّه من علامة محبّة الله. وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذكِ بسماعه أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أنّ من أحبّ محبوبًا كان كلامه وحديثه أحبَّ شيءٍ إليه، كما قيل:

إنْ كنتَ تزعُم حُبّي فلِمْ هجرتَ كتابي

أمَا تأمّلتَ ما فيـ ـهِ مِن لذيذِ خطابي

وقال عثمان بن عفان –رضي الله عنه–: لو طهرتْ قلوبنا لما شبعَتْ من كلام الله.

وكيف يشبع المحِبُّ من كلام محبوبه، وهو غاية مطلوبه! وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– يومًا لعبد الله بن مسعود: «**اقرأ عليّ**»، فقال: أقرأ عليك، وعليك أنزِل؟ فقال: «**إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري**». فاستفتح، وقرأ سورة النساء، حتّى إذا بلغ قوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)} [النساء: ٤١] قال: «**حسبك**». فرفع رأسه، فإذا عينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– تذرِفان من البكاء.

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكّرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يستمعون.

فلمحبّي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبي السماع الشيطاني. فإذا رأيت الرجل: ذوقَه وجدَه وطربَه ونشوتَه في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، وهو كما قيل:

تُقرا عليكَ الختمَه وأنتَ جامِدْ كالحجَرْ

وبيتٌ من الشعرِ يُنْشَدْ تَميلُ كالنَّشْوانْ

فهذا من أقوى الأدلّة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلّقه بمحبة سماع الشيطان؛ والمغرور يعتقد أنّه على شيء! ففي محبة الله وكلامه ورسوله أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حبَّ على الحقيقة أنفع منه؛ وكل حب سوى ذلك باطل، إنْ لم يُعِنْ عليه ويشوِّق المحبَّ إليه.[٧٥]

**والله أعلم**

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

[٧٥] الداء والدواء ( من ص ٥٤٩ إلى ٥٥٢)